مجلة جامعة الأزهر بغزة، سلسلة العلوم الإنسانية 2011، المجلد 13، العدد1 (A) ص 161-234

وسائل الدعاية الصليبية
(صورة المسلمين في أدب الرحلات الأوروبية والروسية إلى الأماكن المقدسة في العصور الوسطى أنموذجاً)

The Crusaders Propaganda
Depiction Of Muslims In European And Russian Middle Ages Literature

رائد مصطفى عبدالرحيم

قسم اللغة العربية

جامعة النجاح الوطنية – نابلس

تاريخ الاستلام 2010/5/27 تاريخ القبول 2011/1/9

الملخص: كثر الحديث عن الحروب الصليبية: أسبابها، وأهدافها، ونتائجها، ولكنّ الحديث عن وسائل الدعاية الصليبية لتلك الحروب لم تُفرد له دراسة خاصة، ومن هنا يأتي هذا البحث ليقف على تلك الوسائل، وليركز على صورة المسلمين في أدب الرحلات الأوروبية والروسية إلى الأماكن المقدسة في فلسطين والأردن ولبنان في العصور الوسطى، وتحديداً عقب الحملة الصليبية الأولى، وسقوط القدس بيد الصليبيين سنة 1099م، وللكشف عن دور هذه الصورة في الترويج للحروب الصليبية. ويقوم البحث على المنهج الوصفي التحليليّ، على قراءة تلك الرحلات، ثم تحليل صورة المسلمين فيها، وربط هذه الصورة ما أمكن بوسائل الدعاية الصليبية، ولهذا اقتضت الدراسة أن ينصب الحديث في المبحث الأول منها على وسائل الدعاية الصليبية بعامة في العصور الوسطى.

Abstract: Many studies have emerged that discussed the crusades wars: their motivations, aims, results, but the rare studies have discussed the crusaders propaganda, this studies aims at discussing this field of research to focus the light on the Depiction of Muslims in European and Russian middle ages literature, especially after the first crusade in the holy lands in Palestine, Jordan, Lebanon in the middle ages, and period the Jerusalem fill in the hands on the crusaders in 1099 AD, and to discover the role of this image in promoting the war efforts.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين، محمد، صلى الله عليه وسلّم، وبعد،

فقد شهد القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، إعلان الحروب الصليبية، وشنّ حرب مقدسة على المسلمين، لتخليص الأراضي المقدسة في فلسطين ولبنان والأردن من قبضتهم، وقد عملت الكنيسة على الترويج لهذه الحروب والدعاية لها بكل الوسائل المشروعة، وغير المشروعة، وكان لها الأثر الأكبر في إقناع المسيحيين الأوروبيين بضرورة خوض هذه الحروب، والاستمرار فيها. كان لأدب الرحلات أهمية كبرى في هذه المعركة، فقد درج المسيحيون منذ أقدم العصور على الحج إلى الأماكن المقدسة، و" لم تنقطع منذ أن اكتشفت القديسة هيلانة، حسب الأسطورة المسيحية، الصليب المقدس، وغير ذلك من الآثار المقدسة خلال حجّ إلى القدس وإلى بيت لحم في عام 326م "، وزاد بعد " إنشاء قسطنطين كنيسة القبر المقدس في القدس "[1]. ولم يقف الحج عقب الفتح الإسلامي، وكثر عدد الحجاج إثر سقوط القدس، وغيرها من المناطق في يد الصليبيين في القرن الحادي عشر وما بعده، رغبة في التوبة والغفران، والدفاع عن الأماكن المقدسة، وزيارة الأماكن المرتبطة بالمسيح والديانة المسيحية، و" يتطوّر موقف أخرويّ تجاه المدينة المقدسة، فهناك رغبة في تحيّن نهاية الزمان فيها، وتحقيق مصير ديني، يجري فهمه بوصفه عبوراً واغتراباً عن العالم، وفي هذا المنظور يعتبر الحج إلى القدس رحلة أخيرة، تُهيئ عبر طقس التكفير الجماعي للأيام الأخيرة للزمان "[2]. **ويقول جوناثان سميث:** بعد الانتصار في الحملة الصليبية الأولى، وسقوط القدس، صار "هناك حماسة للحج إلى بيت المقدس"، فذهب حجاج كثيرون إليها، لاسيما من كبار السادة، وذوي المنزلة الرفيعة[3]. ويذكر محمد مؤنس عوض أهدافاً أخرى لهذه الرحلات، منها الدافع الاقتصادي،الذي يعدّ " ركناً ركيناً بين دوافع الرحلة الأوروبية إلى هناك، إذ أنّ الكثيرين ذهبوا إلى فلسطين، وعادوا ومعهم العديد من المقتنيات والسلع التجارية من أجل

---

[1] – ميشيل بالار، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني، ص35 .

[2] – المرجع نفسه، ص35–36 .

[3] – سميث، حالة الصليبيين الذهنية تجاه الشرق، ص125 .

بيعها في أوطانهم على سبيل تحقيق أرباح وفيرة ". وهناك " الرغبة الملحة في استجلاء سحر الشرق وغموضه، ومشاهدة معالمه بوصفه عالماً غريباً عن أعين الأوروبيين، كذلك وجدت رغبة قوية لدى المسيحيين الأوروبيين في الوقوف على أوضاع إخوانهم المسيحيين الشرقيين خاصة عندما خضعوا لقوى سياسية غير مسيحية مثل القوى الإسلامية "[1]. وثمّة هدف آخر وقف وراء تلك الرحلات، وهو الاستشراق، والرغبة في التعرف عن قرب إلى العالم الإسلامي، وسكان الأرض المقدسة، فكانت زياراتهم مبرمجة بالتنسيق مع كبار رجال الكنيسة في الغرب الأوروبي، وقد تكون فردية، ولكنّ الجامع المشترك بينها أنّها كانت ترمي إلى تقديم صورة عن الأماكن المقدسة، والمسلمين القاطنين فيها، وكان بعضها يكتب على شكل تقارير ترسل إلى أوروبا ليقرأها رجال الدين على المسيحيين هناك، فتكون وسيلة أخرى من وسائل الترويج الإعلامي، والدعاية إلى الحروب الصليبية، والاستمرار فيها، ودعوة للمسيحيين الغربيين إلى القدوم إلى الأماكن المقدسة،للاستيطان فيها، وتخليصها من المسلمين، لأنّهم هم سكانها الأصليون، فتكون هذه الرحلات دعاية واقعية، يكتبها رجال دين مخلصون، وخريطة للقادمين الجدد. وهكذا يتلاقى الاستشراق القديم مع الحديث الذي يرى إدوارد سعيد أنّ الاهتمام الأوروبي ثم الأمريكي فيه كان سياسياً وقفت وراءه الثقافة ووجهته[2].

وقد اتّخذت هذه الرحلات نهجاً يكاد يكون متشابهاً في عملية الترويج والتصوير[3]، واعتمدت على أساليب الإقناع والتأثير، وضربت على الوترين الديني والعاطفي، فكانت بحقّ تجسيداً للوعي الجمعي المسيحي الغربي، وللصورة النمطية المغروسة في أذهانهم عن الأماكن المقدسة، وعن المسلمين المغتصبين لها[4]، حسب أفكارهم، ويمكن التعبير عن

---

[1] – محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية، ص16–17 . وقد استفاض المؤلف في الحديث عن رحلات الحج الأوروبية إلى الأراضي المقدسة، وعن تطوّرها عبر التاريخ . انظر ص16 وما بعدها . وأفاد منه محمد مصطفى النقر في بحثه " كتابات بعض الرحالة الأوروبيين..." حين تحدّث عن الرحلة الأوروبية وأسبابها وتطوّرها عبر التاريخ . انظر ص195–200 .

[2] – انظر إدوارد سعيد، الاستشراق، 46 .

[3] – أعني الرحلات موضع الدراسة .

[4] – وهي صورة العنف والوثنية والهمجية .

أساليب هذه الرحلات ومضامينها في الآتي:

أ- تلك العاطفة الدينية الجياشة التي أبدوها وهم يتحدثون عن الأماكن المقدسة في فلسطين، وتناولوها من وجهة نظر الكتاب المقدس، وربطوها بتاريخ الديانة المسيحية[1]، وذكريات المسيح عليه السلام، والمعاناة، حسب اعتقادهم، التي كابدها واليهود يطاردونه،حتى لحظة صلبه. ففيها يتجلى الجانب الوعظي والروحاني في أبهى صوره.

ب- تجاهلوا الوجود الإسلامي في تلك الأراضي، وقدّموا لهم صورة مشوهة، فهم سراقنة، ووثنيون، وأعداء، ومغتصبون، وهمجيون يعتدون على الحجاج المسيحيين، وينكلون بهم....[2]. ولم يقدّموا فيها سوى الصورة النمطية عن المسلمين، ومردّ ذلك أنّ معظم أولئك الرحالة لم يختلطوا بالمسلمين، فكتبوا عنهم عن بعد، دون اختلاط أو احتكاك مباشر، فخلت معظم رحلاتهم من الموضوعية، وعدم الموضوعية في حدّ ذاته أمر مقصود، ومبرمج له.

ت- ركّزوا على الجانب الاقتصادي، فوصفوا خصوبة الأماكن المقدسة، وكثرة أشجارها وثمارها ومزروعاتها ومياهها وحيوانها، فهي، في عرفهم،الأرض التي تدرّ عسلاً ولبناً، وهي أرض الميعاد. وقد أدّت لغة الرحالة هنا دوراً مهماً في عمليتي الإقناع والتأثير، وبخاصة في الصفات التي أسبغوها على تلك الأماكن المقدسة.

ث- ركّز الرحالة في مجملهم على إبراز صورة إيجابية للصليبيين الذين استوطنوا الأراضي المقدسة، فوصفوا قوّتهم العسكرية، ومنعة حصونهم، وغناهم الفاحش، وعناية ملوكهم وقادتهم بأبناء ملّتهم، ولا يخفى ما في هذا الوصف من تشجيع على القدوم إلى هذه البلاد[3].

---

[1] – انظر مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية، ص84 .

[2] – سيأتي تفصيل هذه الصورة في الصفحات القادمة إن شاء الله .

[3] – لم يخرج عن هذا الوصف سوى بورشارد، وسيأتي الحديث عن أسباب ذلك في الصفحات القادمة إن شاء الله .

وقد كثرت الكتابات عن الحروب الصليبية: أسبابها، وأهدافها، ونتائجها، ولكنّ أحداً من الباحثين لم يفرد دراسة شاملة عن أساليب الغرب الأوروبي في الدعاية لهذه الحروب.

ومن هنا جاء هذا البحث **ليلقي الضوء على بعض هذه الأساليب، وليركّز على أدب الرحلات، وعلى الصورة التي رسمها بعض الرحالة الأوروبيين والروس للمسلمين في رحلاتهم، ويكشف عن دور هذه الصورة في الدعاية الصليبية.** فالدراسة مبحثان:

المبحث الأوّل: نبذة عامة عن وسائل الدعاية الصليبية في العصور الوسطى.

المبحث الثاني: صورة المسلمين في الرحلات الأوروبية والروسية إلى الأراضي المقدسة في العصور الوسطى.

يعتمد البحث الرحلات التي ترجمها إلى العربية سعيد البيشاوي منفرداً، أو تلك التي ترجمها بمعاونة بعض زملائه: رياض شاهين الذي ترجم وإياه رحلة ثيودوريش، وإسماعيل أبو هدبة، وترجما رحلة دانيال الراهب، وفؤاد عبد الرحيم دويكات، الذي ترجم وإياه رحلة فيتلوس.

والحق يُقال: لقد بذل هؤلاء المترجمون جهوداً عظيمة في الترجمة، وكان لما قدموه أثر كبير في معرفة نظرة أولئك الرحالة الصليبيين إلى المسلمين، وبيان دور هذا الفنّ الأدبي في الترويج للحملات الصليبية. أمّا الرحلات موضع الدراسة، فهي:

1- رحلة الحاج سايلوف (1102-1103م)

2- رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب (1106-1107م)

3- رحلة فيتلوس (1130م)

4- رحلة يوحنا فورزبورغ (بين عامي 1160-1170م)

5- رحلة ثيودوريش (1161-1164م)

6- رحلة بورشارد (القرن الثالث عشر الميلادي).

ويقوم البحث على المنهج الوصفي التحليليّ، على قراءة تلك الرحلات، ثم تحليل صورة المسلمين فيها، وربط هذه الصورة ما أمكن بوسائل الدعاية الصليبية، التي تتضح معالمها في المبحث الأول من هذه الدراسة. **صحيح أنّ هناك صوراً قدّمها بعض الرحالة، مثل بورشارد ما هي إلاّ وصف محض للمسلمين، ولكنّ معظم الصور كانت تخفي وراءها هدفاً ترويجياً دعائياً للحروب الصليبية.**

ولا بدّ من الإشارة إلى أن هناك بعض الدراسات السابقة التي يمكن الإفادة منها في هذا البحث، وهي الآتي:

- بحث عنوانه " **الأغاني** " **لميخائيل روتليدج**، تناول فيه دور الأغاني الأوروبية في الترويج للحروب الصليبية، وفي تجسيد الصورة النمطية في أذهان الأوروبيين عن الإسلام والمسلمين.
- كتاب " **الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية (1099-1187م)** "، **لمحمد مؤنس عوض**، تحدث فيه عن أهم الرحلات الأوروبية إلى بيت المقدس عقب الاحتلال الصليبي لها، فتناول مضامينها، وأساليب كتّابها، ولكنّه لم يقف على صورة مفصلة للمسلمين فيها، وهذه الرحلات هي: **رحلة سايلوف، ورحلة دانيال الراهب، ورحلة فيتلوس، ورحلة يوحنا الورزبرجي، ورحلة أبو فروزين، ورحلة بنيامين التطيلي، ورحلة ثيودوريش، ورحلة بتاحيا الراتسبوني، ورحلة يوحنا فوكاس.**
- كتاب " **الغرب المتخيل** "، **لمحمد نور الدين أفاية.** وقف فيه على الصورة النمطية للمسلمين في أذهان المسيحيين الغربيين، وعلى بعض وسائل الدعاية والترويج للحروب الصليبية، مثل الرسوم، والألوان، والشبقية.
- ويمكن الإفادة من مقدمة الترجمة للرحلات محلّ الدراسة، أو الدراسة التحليلية التي وردت في بعضها، مثل رحلة ثيودوريش على سبيل المثال.
- بحث كتبه **محمد الحافظ مصطفى النقر**، عنوانه " **كتابات بعض الرحالة الأوروبيين عن مملكة بيت المقدس الفرنجية 1099-1187م** "[1]. تناول فيه بعض تلك الرحلات الأوروبية إلى الأراضي المقدسة، وهي رحلة دانيال الراهب، ورحلة فيتلوس، ورحلة يوحنا فورزبورغ، ورحلة ثيودوريش، والأسلوب الذي اتّبعه في دراستها أنّه بدأ " بالتعريف بكل رحالة، وسنة رحلته إلى فلسطين، ثم الإشارة إلى أهم النقاط في الجوانب السياسية والحربية والاقتصادية والدينية، ثم التعليق عليها في ضوء ما ذكرته الكتابات الرسمية لمؤرخي المملكة الفرنجية "[2]. ولكنّ الباحث لم يشر إلى الجديد الذي

---

[1] – نشر في مجلة المنارة –جامعة آل البيت، المفرق، الأردن، المجلد الرابع، العدد الأول، 1419هـ-1999م ، ص193-228 .

[2] – كتابات بعض الرحالة الأوروبيين عن مملكة بيت المقدس الفرنجية، ص 194 .

سيضيفه إلى كتاب محمد مؤنس عوض "الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية".

المبحث الأوّل

وسائل الدعاية الصليبية

أعلن البابا أوربان الثاني الحروب الصليبية في مجلس عقد " في أوفيرون، في مدينة كليرمونت " بفرنسا ". تألف هذا المجلس الذي كان قد بعث الدعاة للتحضير له في جميع النواحي من 310 عضواً من الأساقفة والقساوسة "[1]. وقد وقفت وراء هذا الإعلان مجموعة من الأسباب تحدث الشارتري، وهو شاهد عيان على الحملة الصليبية الأولى، عن بعضها إذ قال مشيراً إلى أوربان: " لقد رأى الناس بأسرهم من الكهنة والعامة، وقد وطئوا الديانة المسيحية بأقدامهم، وأهملوا السلام كلّ الإهمال، وتناحر أمراء البلاد واحدهم مع الآخر في حروب لا تنقطع. رأى الناس يسرقون متاع الدنيا بعضهم من بعض، ورأى كثيراً من الأسرى يُحتجزون من غير حقّ، ويُلقون بهمجية في غياهب السجون إلى أن تُدفع فديتهم الفاحشة، أو يعانون من عذاب الشرور الثلاثة الجوع، والعطش، والبرد إل ى أن يلقوا حتفهم سرّاً. ثمّ رأى الأماكن المقدسة وقد انتهكت حرماتها، والصوامع والكنائس قد التهمتها النيران، وما سلم من الأذى أحد من البشر، وصارت الشؤون البشرية والإلهية موضع ازدراء وسخرية "، و "عندما سمع أنّ الأتراك قد احتلوا المناطق الداخلية من أراضي بيزنطة، وأنّ المسيحيين خضعوا لشعب متوحش هدّام، هزّته مشاعر التقى والورع..."[2].

إنّ المشاعر الدينية، ووضع الغرب البائس في هذا الصدد، هي التي حفزت أوربان الثاني على الإقدام على خطوة إعلان الحروب الصليبية، وحفزه خضوع الأماكن المقدسة والضريح المقدس في فلسطين لسلطان الوثنيين والهمجيين والمعتدين المسلمين، على حدّ تعبير الشارتري، وهذه هي الصورة النمطية عن المسلمين التي سادت في ذهن أبناء الغرب الأوروبي في تلك الحقبة الزمنية[3]، وتجسّدت في أشعارهم، وأغانيهم، وكتاباتهم

---

[1] – فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص31 .

[2] – المصدر نفسه، ص31 .

[3] – انظر تفصيل ذلك: محمد نور الدين أفاية، الغرب المتخيل، ص121–143 .

المختلفة.

وقد سعى البابا والغرب الأوروبي بكل إمكاناته إلى الترويج لهذه الحروب، وحثّ المسيحيين على المشاركة فيها، والذهاب إلى فلسطين لإنقاذ الأماكن المقدسة، والتنعم بالأرض التي تدرّ عسلاً ولبناً، وفي الآتي عرض لأبرز وسائلهم في الترويج لتلك الحروب، وللصورة النمطية للمسلمين:

دور البابا ورجال الدين

أدى البابا ورجال الدين دوراً عظيماً في الترويج لهذه الحروب، وتشجيع المسيحيين على الانضمام إليها، وكان لخطاب البابا أوربان الثاني في مجمع كليرمونت بفرنسا أثره العظيم في النفوس إذ " ألقى موعظة بليغة عن العواصف الهوجاء التي تجتاح العالم الذي انحطّ فيه مستوى الديانة، وبخشوع حثّ الجميع على أن يسترجعوا قوة إيمانهم، وأن يثيروا في نفوسهم العزم على خذل ألاعيب الشيطان، وأن يعملوا على أن يعيدوا للكنيسة المقدسة، التي أضعفها الأشرار، مركزها المجيد التليد "[1]. وقد استغل أوربان بلاغته في الخطاب للولوج إلى أذهان المسيحيين، وضرب على الوتر الديني والعاطفي، وأكثر من الاقتباس من الكتاب المقدس للوصول إلى هدفه، إذ بيّن لهم أنّه مبعوث إليهم من الله كي يخاطبهم، وينذرهم عاقبة أخطائهم، والاستمرار فيها، وبيّن أنهم يحملون أمانة ومسؤولية الدين عليهم أن يؤدوا لها حقّها " كونوا رعاة حقيقيين، واحملوا عصيّكم بأيديكم، ولا تغفلوا، واحرسوا من جميع النواحي القطيع الذي عهد إليكم "[2]. وإذا ما قصّروا في حمل هذه الأمانة والمسؤولية، فإن مصيرهم الحجيم " إذن أصلحوا أنفسكم أولاً حتى لا تجوز عليكم الملامة...، وإن أردتم أن تكونوا حقاً أخلاّء الله فاعلموا عن طيب خاطر بما يرضيه "[3]. ثمّ ولج من هذه المقدمة المؤثرة إلى حثّهم على رعاية شؤون الكنيسة، والإيفاء بحقوقها، وطلب إليهم الكفّ عن الاعتداء على رجال الدين والحجاج والتجار وقطع الطريق، ووعد المخالفين بالحرمان من الغفران والنعيم، ثمّ بدأ بموضوعه الرئيس، وهو تخليص القدس والأماكن المقدسة ومسيحييها من قبضة المسلمين، وصور بقاءها وبقاءهم

[1] – الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص31–32 .

[2] – المصدر نفسه، ص32 .

[3] – الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص33 .

تحت سيطرة المسلمين محنة " بل هي أسوأ المحن على الإطلاق، تحيق بالمسيحية في طرف آخر من العالم "[1]. " عليكم أن تسارعوا لمدّ يد العون لإخوانكم القاطنين في المشرق الذين يحتاجون إلى مساعدتكم وطالما التمسوها "[2]، ويتابع حديثه، فيصف توغّل الأتراك السلاجقة في الأراضي البيزنطية، واعتداءاتهم على المسيحيين ورموز المسيحية: " لقد انتزعوها شيئا فشيئاً من أراضي المسيحيين، كما وهزموهم في سبع معارك حتى الآن، وقتلوا وأسروا الكثيرين، وهدموا الكنائس، ودمروا مملكة الله "[3]، ويستمر في التحريض على المسلمين، ومهاجمتهم، ونعتهم بنعوت الكفر والإلحاد، ويطلب إليهم أن يهبّوا بقضّهم وقضيضهم من أجل الخلاص والتخليص، ويعد المشاركين منهم بغفران " كلّ خطاياه إذا ما واجه حتفه زاحفاً في البرّ، أو عابراً في البحر، أو مقاتلاً الكفار، إني أمنح ذلك لكلّ من يذهب، مستمداً القوة والسلطة التي وضعها الله فيّ "[4].

وحذّرهم عاقبة التقصير، أو التهاون في حرب المسلمين إذ قال: " يا خزينا، ويا عارنا، إذا ما انتصر جنس يتسم بهذه الحقارة والانحطاط، وتستعبده الشياطين والعفاريت، على شعب أنعم الله عليه بالإيمان، وتباهى باسم المسيح "[5].

إن البابا يعلن الحرب الدينية بين المسلمين والصليبيين، فلا ينفك يستعمل الألفاظ، ويأتي بالصور التي تجسّد كفر المسلمين ووثنيتهم، وهمجيتهم، واتّباعهم الشياطين. وتلك الصور والألفاظ التي ترسم صورة إيمانية للمسيحيين، فهم أمناء الله، وجيش المسيح، المغفورة ذنوبهم، المعتدى عليهم. وقد حقق أوربان الثاني " التوليف المثمر بين الحج التكفيري، والحرب العادلة ضد الوثنيين "، و " تتدرج في المسار المباشر لإصلاح الكنيسة في القرن الحادي عشر "[6]. وقد حوّل فيها " ما لم يكن حتى ذلك الحين غير حملات

---

[1] – المصدر نفسه، ص35 .

[2] – المصدر نفسه، ص36 .

[3] – المصدر نفسه، ص36 .

[4] – المصدر نفسه، ص36 .

[5] – الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص36 . وانظر الخطبة في يوميات صاحب أعمال الفرنجة، ص191–192 .

[6] – ميشيل بالار، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني، ص11 .

محدودة ضد المسلمين إلى حجّ حربيّ من جانب الجماعة المسيحية كلّها، أي إلى حرب صليبية "[1].

وهناك جانب استثمره البابا في خطبته، ولكنّ الشارتري لم يشر إليه، وهو دعوة المسيحيين الغربيين إلى تحرير الضريح المقدّس، والكنائس الشرقية من اضطهاد المسلمين[2].

ويتحدث الشارتري عن أثر هذه الخطبة في نفوس المتلقين، فقد " قام جميع الحاضرين، من الكهنة والعامة، بعفوية، بشكر الله على كلمات البابا أوربان "، " وما إن سمعوا بغفران الذنوب إلاّ وأقسموا على أن يذهبوا بأرواح طاهرة، سواء أمروا بالذهاب أم لا "[3]، وقالوا متحمسين " إنّها إرادة الربّ، وعندئذ يقرّر أوربان الثاني للمتطوعين أن يتناولوا صليباً علامة على التزامهم "[4]

وعقب هذه الخطبة، تولّى أوربان الثاني " هو نفسه القيادة بإعلان الحملة الصليبية في عدد من المدن التي زارها خلال جولته المطوّلة حول جنوب ووسط وغرب فرنسا، وأرسل خطابات وسفارات فيما وراء حدود فرنسا "[5]. وأصدر أوامره إلى رجال الدين كي يشاركوه في حمل الصليب، والدعوة إلى الحرب المقدسة في مختلف أنحاء أوروبا، وفي أماكن خاصة فيها[6]. فبدأ هؤلاء حملتهم الدعائية المنظمة، فاستغلوا الأعياد الدينية، " والتجمعات الترفيهية، مثل مبارزات الفرسان في محاولة لضمان أن يقسم الرجال المهمّون من بين الحضور على الذهاب في الحملة الصليبية، ولكي يقوموا بحملات تعبئة على نطاق واسع "، وكانوا يذهبون إلى الأماكن المكتظة بالناس حيث يتوقعون نتائج طيبة، ومن أجل ضمان أكبر قدر من القبول، كانوا يعرضون " الذخائر المقدسة الخاصة بآلام

---

[1] – المرجع نفسه، ص33 .

[2] – المرجع نفسه، ص49 .

[3] – تاريخ الحملة إلى القدس،، ص37، وانظر أرنست باركر، الحروب الصليبية، ص23 .

[4] – ميشيل بالار، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني، ص50 .

[5] – سيمون لويد، الحركة الصليبية، ص57، وانظر ميشيل بالار، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني، ص50 .

[6] – انظر المرجع نفسه، ص57، 59، 70 .

المسيح "[1]، وينتجون الخطب والكتب الخاصة التي تساعد المبشر بالحملة الصليبية[2]، وراحوا يعدون بالغفران أولئك " الذين يحضرون الخطب "[3].

ونجحوا في ربط الحروب الصليبية بالتوبة والحج إلى الأماكن المقدسة، وكان تقدّم الصليبيين في حملتهم الأولى التي احتلّوا فيها القدس سنة 492هـ–1099م عاملاً مهماً لإقناع الصليبيين بأنّ هناك مساعدة إلهية،" وأنّ يد الرب كانت تتدخل لمساعدتهم مادياً، وأنّ الربّ كان يوافق بالفعل على ربط الحرب المقدسة بالتوبة والحج "[4]. فهذا بطرس تيدبودة، وهو أحد رجال الدين المشاركين في احتلال القدس، يقول في كتابه الذي أرخ فيه الحملة الصليبية الأولى، وكتب عن ذلك الاحتلال: " **سقطت بيت المقدس** في الخامس عشر من يوليو، سادس أيام الأسبوع، **بمساعدة سيدنا يسوع الذي له المجد والشرف أبد الآبدين آمين** "[5].

وبرزت في الدعاية الصليبية فكرة **شهداء الإيمان** في وصف أولئك الذين قضوا في الحملات الصليبية[6]، وغالباً ما وصفتْ الدعاية الصليبية " صوراً لهم تظهر أجسادهم على شكل ملائكة صاعدة إلى السماء "[7].

وخلاصة الأمر، كما يقول سيمون لويد،: إن حملات رجال الدين الدعائية كانت تعتمد " على الجولات المخطط لها "، " وكثيراً ما كانت الدعوة عبارة عن مسألة إخراج مسرحي تمّ التخطيط لها قبل أسابيع أو شهور "[8].

الفن ودوره في الترويج:

---

[1]– سيمون لويد، الحركة الصليبية، ص72 .

[2] – –المرجع نفسه، 76 .

[3] – المرجع نفسه، ص75.

[4] – جوناثان رايلي سميث، حالة الصليبيين الذهنية تجاه الشرق، ص124 .

[5] – حسن عبد الوهاب حسين، مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي والسياسي للحروب الصليبية، ص27 .

[6] – انظر سميث، حالة الصليبيين الذهنية، ص105 ، أفاية، الغرب المتخيل، ص 126 .

[7] – سميث، حالة الصليبيين الذهنية، ص105 .

[8] – سيمون لويد، الحركة الصليبية، ص72، 75 .

أدى الفنّ والأدب دوراً عظيماً في الترويج للحروب الصليبية، ويمكن إجمال هذه الفنون في الآتي:

1- **الخطب:** صارت الخطب المؤثرة نهجاً اتبعه رجال الدين، وأرباب الأدب في الدعاية للحروب الصليبية، وقد استمدوا هذا النهج من خطبة البابا أوربان الثاني، وساروا عليه، فهذا سان برنارد في خطبته البليغة عدّ الحملة الصليبية الثانية (1102م) فرصة خاصة للخلاص، مفتوحة لأولئك الذين أخذوا الصليب إذ قال: "**إنّ الربّ يضع نفسه في موقف الحاجة، أو يتظاهر بأنّه في هذا الموقف، على حين يريد طوال الوقت أن يساعدكم في حاجتكم، إنّه يريد أن يتم التكفير فيه باعتباره المدين، حتى يمكنه مكافأة أولئك الذين يحاربون من أجله بأجورهم: غفران خطاياهم، والمجد الخالد. لهذا السبب أسميتكم جيلاً مباركاً، أنتم الذين تمّ جمعكم في زمن على هذا القدر من الثراء في الغفران، وأنتم أحياء في هذه السنة السارّة جداً بالنسبة للربّ، إنّها حقّاً سنة الغفران**"، **ويواصل حديثه المنمق عن الغفران: "خذوا شارة الصليب، وسوف تحصلون في المقابل على غفران لكلّ الذنوب التي اعترفتم بها بقلوب خاشعة. إنّ القماش " الذي صنعت من الصلبان " لا يساوي الكثير إذا ما بيع. أمّا إذا تمّ ارتداؤه على كتف مخلّص مؤمن، فمن المؤكّد أنّه سوف يساوي مملكة الربّ"**[1].

2- **الشعر والغناء:** كتب **ميخائيل روتليدج** بحثاً مهماً عن " الأغاني " ودورها في الدعاية للحملات الصليبية، وفي تجسيد الصورة النمطية للمسلمين، وبيّن الأثر الذي تركته في الوجدان المسيحيّ، وأنها كانت تدور حول الحملات الصليبية في المشرق والأندلس، وقد كثرت هذه الأغاني في اللغات الأوروبية المختلفة، وبخاصة الفرنسية والألمانية، ووقف وراء هذه الكثرة " أنّ عدة شعراء كانوا يقودون الحملات الصليبية "[2] . وتدور مضامين الأغاني حول تمجيد أفعال الصليبيين، وتحريضهم على الحجّ إلى الأماكن المقدسة، والمشاركة في الحروب الصليبية، وتمجيد الأبطال الصليبيين، والوعد بالغفران، وإرجاع هذه الحروب إلى إرادة الربّ المسيح،على حدّ تعبيرها. ثمّ إنها تحرّض على المسلمين، وتصوّرهم وثنيين، ومعتدين، وهمجيين. ومن هذه الأغاني

---

[1] – سميث، حالة الصليبيين الذهنية، ص126 .

[2] – ميخائيل روتليدج، الأغاني، ص143 .

أنشودة أنطاكية " وهي قصة حصار أنطاكية سنة 1098م، وتحكي أنشودة الحملة الصليبية "[1]، ومنها الملاحم الفرنسية المعروفة **بالمآثر**، وتعني " المآثر التي أنجزها بطل أو مجموعة أو عشيرة "[2]، ومنها **أنشودة رولان القديمة الشهيرة**، وهي تجسّد حدثاً تاريخياً حقيقياً " على الرغم من أنّ الشكّ يحوم حول تفاصيله "، ومفادها أنّه في سنة 778م، "كانت قوّات شارلمان عائدة من حملة عسكرية ناجحة في إسبانيا " عندما حدث أن تعرّضت لهجوم" من جانب مسلمي سرقسطة، وقد هلكت مؤخرة الجيش بأسرها بمن فيها إيجيهارد وكيل شارلمان، وسلم قائد الحرس الإمبراطوري، ورولان دوق بريتاني "، " وبحلول القرن الحادي عشر كان قد حدث تغيّر مذهل في الموازين، ذلك أنّ رواية الأحداث في أنشودة رولان حوّلت الحادثة إلى مواجهة رئيسية بين إمبراطورية شارلمان وقوى الإسلام، الذي توّجه غزو شارلمان الناجح لإسبانيا كلّها، وتحويل أهالي سرقسطة المسلمين غصباً إلى المسيحية "[3]، وتفاصيل الأنشودة "**استولى الإمبراطور على سرقسطة، وجعل ألفاً من الفرنجة الموالين له يفتشونها، وفي معابد محمد، وبالهراوات الحديد والبُلط، هشّموا صنم محمد وغيره من الأصنام، حتى لا يبقى أيّ شرّ أو خرافة، والملك شارلمان مؤمن حقاً، ويخدم الربّ، وأساقفته يباركون المياه، ويقودون الوثنيين إلى التعميد، وإذا ما عارض أحدهم إرادة شارل، فإنّه كان يأمر بسجنه،أو حرقه، أو ذبحه، وهكذا تمّ تعميد أكثر من مئة ألف، وحُوّلوا إلى مسيحيين حقيقيين، باستثناء ملكة سرقوسة وحدها، فقد كان لا بدّ من أن تُساق أسيرة إلى فرنسا، لأنّ الملك يرغب في أن تعتنق المسيحية عن حبّ**"، ويبيّن روتليدج أنّ الصورة التي رسمتها هذه الأنشودة للمسلمين، وتتجلّى في أنّهم وحوش، وعبدة أصنام، كان لها أثرها الكبير في العالم المسيحي[4].

ومضامين الأغاني الأخرى لا تقلّ خطورة عن أنشودة رولان، فهي تضرب على الوتر العاطفي والديني والإنسانيّ " مثل **أغنية كوسي** أنا أحبك أكثر من كلّ الناس ، وكلّ

---

[1] – المرجع نفسه، ص138 .

[2] – المرجع نفسه، ص138 .

[3] – المرجع نفسه، ص138 .

[4] – المرجع نفسه، ص140 .

الأغاني الألمانية تقريباً مراث للأبطال الذين سقطوا، مثل **أغنية جوسليم فيديت** التي يرثي فيها ريتشارد ملك إنجلترا 1199م، وأغاني المديح "[1]، وهناك أغنيات تمجّد كرم قادة الحروب الصليبية، وتتحدث عن مآثرهم الحربية[2]. ومنها قصيدة الشاعر الباريسيّ **روتيبيف**، التي صوّر فيها مصير حملة لويس التاسع إلى تونس، والنهاية المأساوية له إذ قضى غرقاً، ووصف المسلمين كفرة وأشراراً: " **إنّ الموت قد سبب لي خسارة كبيرة، وأنت أيضاً أيها الملك الطيب، في رحلتين[3]، فقد انتزع أناساً صالحين منّي، كما فعل الحج إلى تونس البعيدة، وهو مكان همجيّ، وكذلك فعل الأشرار الذين لا ربّ لهم** "[4].

وتنظر بعض الأشعار والأغنيات " إلى الأرض المقدسة على أنها أملاك الربّ الحقّة، التي اغتصبها الناهبون "، وواجب على الصليبيين " أن يبذلوا ما بوسعهم لكي يعيدوها إليه، فإذا أخفقوا في القيام بهذا، فإنّهم بذلك لا يقومون بواجبهم "[5]، كما في قصيدة شاعر فرنسيّ مجهول سنة 1143-1146م:[6]

أيها الفارسُ إنّك حقّاً محظوظ
لأنّ الربّ دعاكَ إلى مساعدته
ضدّ الأتراك المسلمين
الذين ارتكبوا مثل هذه الأمور الفظيعة ضده
فقد استولوا على ضيعته دون وجه حقّ
ويجب حقاً أن نأسى لهذا
لأنّه حدث هناك لأوّل مرّة
أنْ عُبدَ الربّ وتمّ الاعتراف به ربّاً

---

[1] - روتليدج، الأغاني، ص141 .

[2] - المرجع نفسه، ص144 .

[3] - إشارة إلى حملته الأولى على مصر سنة 648هـ، حيث أسر وسجن، إلى الثانية، على تونس حيث غرق ومات .

[4] - روتليدج، الأغاني، ص144 .

[5] - المرجع نفسه، ص145-146 .

[6] - المرجع نفسه،ص146 .

كلّ من وافق لويس الآن

لن يخشى نار الجحيم

لأنّ روحه ستكون في الفردوس

مع ملائكة الربّ سيدنا

وتركّز بعض الأغاني على رسم صورة مزرية للمسلمين، تصوّرهم قتلة وحشيين شبقين، لا يرحمون أو يرأفون، ويعتدون على النساء والأطفال، وأماكن المسيحيين المقدسة، كما يبدو في قصيدة شاعر مجهول، كتبها عقب استرداد المسلمين القدس سنة1244م[1]: " **ثمّ جاءت الحسناوات الرقيقات مكبلات بالأغلال، يثقلهنّ العذاب، وهنّ يبكين بحرقة في أساهنّ وبلواهنّ بالقدس، ويرى المسيحيون أطفالهم يُشوون على النار، ويرون زوجاتهم وقد تمّ تشريح صدورهنّ، ونزعت من أماكنها، وهنّ لا يزلن على قيد الحياة، ومن الملابس يصنعون بطاطين، ويجعلون من الضريح المقدّس اصطبلاً، ومن الصلبان المقدسة أوتاداً في القدس** "[2].

وأورد بعض المؤرخين الذين شاركوا في الحروب الصليبية أشعاراً تمجّد انتصارات الصليبيين في المشرق، وتصف هزائم المسلمين، والوضع المزري الذي آلوا إليه، فمن ذلك ما أورده فوشيه الشارتري عقب سقوط القدس:[3]

وبسيوف مشرعة ركض رجالنا في المدينة

لا يستبقون أحداً، حتى أولئك الذي يستعطفون الرحمة

وتساقط الجمع كما يتساقط التفاح المتعفّن

من الأغصان المهزوزة أو جوز البلوط من الشجر المتمايل

ولعلّ الأشعار التي كانوا يكتبونها على قبور ملوكهم وقادتهم في القدس، هي نمط من الأغاني التي كانوا يمجدون فيها أبطالهم، الذين ضحوا بحياتهم من أجل الحرب المقدسة، وقد أثبت بعض رحالتهم الذين زاروا القدس إبّان احتلالها بعض هذه

---

[1] – وهو الاسترداد الثاني عقب تنازل الكامل الأيوبي عنها .

[2] – روتليدج، الأغاني، ص 159 .

[3] – الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص75 .

الأشعار في رحلاتهم، ومنها ما ورد في رحلة ثيودوريش[1] إلى الأماكن المقدسة في فلسطين، فقد ذكر أنّه كان مكتوباً على ضريح بلدوين الثاني شقيق جودفري[2]:

هنا يرقد بلدوين، يهوذا المكابي الثاني
فهذا أمل بلاده وعنفوان وفخر الكنيسة
غطرسة قيدار ومصر ودان ودمشق
خرّت فزعاً لجبروته وأرسلت الهدايا والإتاوة كذلك
آه، فأمّا اليوم، فيرقد تحت هذا النصب الحقير[3]

ثالثاً: الرسوم والألوان: اعتمد الصليبيون في الترويج للحملات الصليبية على اللوحات الفنية، والرسوم الكاريكاتورية، التي تضمنت ما تضمنته الأغاني والأشعار والخطب البلاغية من تمجيد للصليبيين المشاركين في الحرب المقدسة، وشهداء الإيمان، ووعد بالغفران، وبيان التأييد الإلهي لهذه الحروب. وصوّرت المسلمين وثنيين، يعبدون الأصنام، وهمجيين معتدين. وقد حوى كتاب " تاريخ أكسفورد للحروب الصليبية "[4] عدداً كبيراً من هذه الرسومات. ووظّفوا " اللون بشكل مثير للانتباه، فالعدو يختزل **في الأسود،** وفي الكتابات الأدبية أو الأعمال الفنية في العصر الوسيط، كانت مجموعة من العلامات والإشارات تنسب إلى بعض القيادات الإسلامية التي قاومت الاختراق الصليبيّ المضاد، أو اشتهرت بانتصاراتها أمثال نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبيّ...إلخ. وقد وجدت صور تقدّم هذه القيادات بألبسة ودرقات مثل التي يتميّز بها الفرسان الصليبيون، غير أنّ الوجوه التي يرسمونها لهم مشحونة بدلالات قدحية، مثل رأس خنزير بري مذبوح،... رأس تنين، وفهد، وثعبان،وعقرب،، ونلاحظ أيضاً داخل هذا النّظام الشعاري المتخيّل المرتبط بالإسلام استعمالاً كثيفاً للون الأسود، وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا اللون لم يعد يمثل

---

[1] – سيأتي الحديث عنها في الصفحات القادمة إن شاء الله .

[2] – جودفري من قادة الحملة الصليبية الأولى، وأول ملوك القدس عقب احتلالها .

[3] – ثيودوريش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ص73 .

[4] – حرره: جوناثان رايلي سميث، وترجمه إلى العربية: د. قاسم عبده قاسم .

لوناً عادياً مثل الألوان الأخرى، بل أصبح يعبّر عن فأل سيئ، وغدا للون الأبيض لونان متناقضان: اللون الأحمر، وهو اللون المفضّل عند السكان الأوروبيين، والأسود، وهو لون الخطيئة والوثنية والموت، ومُنح هذا اللون إلى المسلم "[1].

الرؤى والأحلام والنبوءات

إنّ دعوة رجال الدين إلى هذه الحروب الإلهية المقدسة، جعلتهم يستثمرون الرؤى والأحلام والنبوءات للترويج لها ، فكانوا " يروون شتى الخرافات والسخافات عن الرؤى النبويّة، وعن ظهور المسيح ومريم العذراء والرسل والقديسين، وعن العلامات السماوية، التي تنبئ بمعركة المسيحيين المقبلة ضد أتباع الإسلام "[2]. وقد اعتمد بطرس الناسك في حملته الدعائية بكثرة على هذه النبوءات[3]، وامتلأت كتب مؤرخيهم بالحديث عن هذه الرؤى والأحلام مثل كتاب فوشيه الشارتري " تاريخ الحملة إلى القدس "، وغيره. فمن يقرأ هذا الكتاب، يدهش لحجم الاعتماد على هذه الرؤى والأحلام في الترويج الديني للحملات الصليبية، فهي تبيّن للصليبيين أن الحروب الصليبية هي بإرادة الرب يسوع، الذي راح يبرز للرجال الصالحين، أو الفارين من ساحة المعركة، يحثهم على الثبات، ويأمرهم أن يذيعوا هذه الرؤى بين المسيحيين، وأنّه يعدهم بالنصر والتأييد، وكانت هذه الرؤى والأحلام، تكثر في حالة الضيق أو الخطر أو اليأس الذي كان يتعرض له الصليبيون في حروبهم مع المسلمين، وكان لها صدى في تثبيت العزائم، وبثّ الروح الدينية، ومن ثمّ الاستماتة في القتال. هذا إضافة إلى النبوءات الطبيعية التي كانت تؤدي الغرض ذاته في الدعاية الصليبية. وقد كانت هذه النبوءات هي المحرك الرئيسي للحملة الشعبية الصليبية الأولى، تذكر **آنا كومينا في كتابها الألكسياد** أنّ بطرس الناسك أعلن للجمهور المسيحي أنّ " هاتفاً سماوياً جاء يأمره أن يعلن إلى جميع أمراء فرنسا أنّ عليهم مغادرة أوطانهم، والسفر للتعبد في كنيسة القيامة، وأن يبذلوا نفوسهم وجميع طاقاتهم في سبيل تحرير القدس من أبناء هاجر "[4]. وكان لهذه الدعوى أثرها في نفوس الغربيين،

---

[1] – أفاية، الغرب المتخيل، ص148–151 .

[2] – أفاية، الغرب المتخيل، ص148 .

[3] – انظر ميشيل بالار، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني، ص51–52 .

[4] – آنا كومينا، الألكسياد، ص112 .

تقول كومينا معبرة عن ذلك: " وإنّه لمن المدهش أن نرى درجات النجاح التي لاقاها، حتى لكأنّ قلوب الجميع قد دخلت إليها القناعة عن طريق وحي ربّاني..."[1] وخير مثال على هذه الرؤى والنبوءات ما أورده الشارتري في كتابه " تاريخ الحملة إلى القدس "، منها على سبيل المثال:

- يروي الشارتري أنّه في أثناء حصار أنطاكية سنة 1098م، حين شعر الصليبيون أنّهم سيهزمون، ويفشلون " انطلق الكثيرون إلى القرى المجاورة بحثاً عن الطعام، ولم يرجعوا بعد ذلك إلى المعسكر، وتركوا الحصار نهائياً "، " في تلك الفترة رأينا شعاعاً أحمر في السماء، كما شعرنا بزلزلة عظيمة في الأرض، ممّا أوقع الخوف في قلوبنا، **وقد رأى الكثيرون علامة معينة على شكل صليب، بيضاء اللون، تسير في طريق مستقيم إلى الشرق** "[2].
- عقب سقوط أنطاكية في اليوم التالي له " وصل حشد كبير لا يعدّ ولا يحصى من الأتراك، وضربوا حصاراً حول المدينة "، " لمّا رأى الفرنجة هذه الأمور، وهنت عزائمهم، ولم يخفف ذلك أن عقوبتهم قد تضاعفت بسبب خطاياهم، إذ أنّ كثيراً منهم ما إن دخلوا المدينة حتى عاشروا النساء انتهاكاً للشرع "، " وبقي الفرنجة محاصرين داخل الأسوار في حالة من القلق والبلبلة يصعب تصوّرها ". إنّ الشارتري يفسر ما جرى للصليبيين من تخاذل، وخوف ورعب عقوبة من الله على انتهاكهم شرعه، وارتكابهم الخطايا، ولكنّ الرؤى تتدخل مرّة أخرى لتقف إلى جانبهم، وترشدهم إلى الطريق القويم، وتشجّع الفارين منهم على التوقف، والرجوع مرّة أخرى: " **في تلك الأثناء، ظهر الربّ غير ناس عباده لكثير من الناس، وقد كرّروا ذكر هذه الحقيقة، وطمأنهم، ووعدهم أنّهم سيفرحون بالنصر في القريب. ثمّ ظهر الربّ لرجل دين معيّن، كان فارّاً لخوفه من الموت، وقال له: إلى أين أنت ذاهب يا أخي؟ فأجاب: إنّني فارّ لئلا يسعفني سوء الحظّ وأهلك، فأجاب الربّ رجل الدين: لا تهرب بل عد، وقل للآخرين أنّني سأكون معهم في المعركة، فقد طمأنتْ نفسي صلوات أمّي، وسوف أكون رحيما على الفرنجة، وقد أوشكوا على الهلاك بسبب خطاياهم. دع**

---

[1] – المرجع نفسه، ص112 .

[2] – الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص55 .

أملهم في أن يكون ثابتاً، وسوف أكتب لهم النصر على الأتراك، دعهم يتوبوا وسوف يخلّصون، لأنّني أنا الذي أكلّمك أنا الربّ، فرجع رجل الدين في الحال، وذكر ما سمع "[1].

- ولم يقتصر الأمر على رؤية المسيح، بل أن بعض الصليبيين رأوا أشقاءهم، ومّن قتلوا منهم في المعارك السابقة مع المسلمين، وقد أدت هذه الرؤى الرسالة ذاتها[2]. والغريب في الأمر أنّ هذه الرؤى امتدت إلى بعض المسلمين، فقد ذكر الشارتري أنّ أنطاكية سقطت بفعل خيانة بعض الأتراك، ولكنّه عدّ هذه الخيانة إيماناً برؤيا رآها ذلك التركي المسلم، تدعوه إلى معاونة أصحاب الدين الصحيح، يعني المسيحيين، في العودة إلى ديارهم: " **لقد ظهر الربّ لتركيّ معيّن، كانت قد كُتبتْ عليه بركة الله، وقال له: انهض أيها النائم، إنّني آمرك أن تُرجع هذه المدينة للمسيحيين، استغربَ الرجلُ ذلك، ولكنّه حفظ أمر الرؤيا سرّاً. وظهر الربّ له ثانياً، وقال: ارجِعْ هذه المدينة للمسيحيين، لأنّني الذي آمرك بذلك. أنا يسوع المسيح. احتار الرجل فيما يفعل، ذهب إلى سيّده حاكم أنطاكية، وأعلمه بأمر الرؤيا، فأجابه هذا قائلاً: أتريد أيها الغبيّ أن تطيع شبحاً، فعاد الرجل، ولزم الصمتْ. ظهر الربّ له مرّة أخرى، وقال: لِمَ لمْ تفعل ما أمرتك به، لا تتردد إنني أنا الذي آمر بهذا، أنا ربّ الجميع، فلمّا زال الشكّ من نفسه، بدأ الرجل يخطط سرّاً مع رجالنا مؤامرة تمكنهم من الاستيلاء على المدينة** "[3].

- وتدخّلت الرؤى والنبوءات في الترويج لقدسية الأماكن المحتلة، فحين احتل الصليبيون أنطاكية ادّعى رجل أنّه اكتشف الحربة المقدسة التي طعن بها الجنب الأيمن للمسيح، وزعم الرجل " أنّ الحواريّ أندراوس هو الذي أوحى له بذلك ". صحيح أنّ الفرنجة شكّكوا في صدقه، لكن صدّقه كثير منهم، فكانت " الحربة موضع إجلال وتبجيل "[4]،

---

[1] – الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس ، ص59–60 . وانظر يوميات صاحب أعمال الفرنجة، ص 247–249 .

[2] – انظر الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص60 .

[3] – المصدر نفسه، ص75–76 .

[4] – الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس ، ص59 . وانظر يوميات صاحب أعمال الفرنجة، ص 249، 250، 256 .

واحتفظ بها الكونت ريموند[1] مدة طويلة. وقد أشار قادة الحروب الصليبية في رسالتهم التي أرسلوها إلى أوربان الثاني عقب سقوط أنطاكية إلى أثر هذه الرؤيا ثمّ الحربة في تثبيت الصليبيين على أهدافهم، وإلى الاطمئنان النفسي الذي شعروا به: " **وجدنا الحربة المقدسة التي طَعن بها لونجينوس جنب مخلّصنا، وقد أوحى القديس أندراوس ثلاث مرّات لأحد خَدَمَةِ الرب، وأراه المكان الذي رقدتْ فيه الحربة المقدسة في كنيسة المبارك بطرس أمير الرسل، وقد استمددنا الطمأنينة والقوة من هذا الاكتشاف، وغيره من الإيحاءات** "[2].

الهجوم على رموز الإسلام وأفكاره

هاجم الصليبيون شخص الرسول، صلى الله عليه وسلّم، ووسموه بالشبقية في علاقته بالمرأة، ونفوا أن تكون تلك العلاقة من وحي إلهي. وفي عرفهم يمثّل هذا قمة الانحلال الخلقي، لأن الداعي إلى الورع يتعالى عن اللذة، ويمتنع عن الزواج[3]. و " نعت المسلمين بكونهم يمارسون الشذوذ الجنسيّ، ولا يتورّعون في جعل الجنس مسألة حيوية في علاقاتهم ووجودهم. وهذا ما يعبّر عن ضعفهم وعجزهم عن التحكّم في غرائزهم وأهوائهم. فكيف لنبيّ، ولمن اتّبعه أن يدّعي الإتيان بمشروع إلهي وهو غير قادر على الترفّع عن غرائزه البسيطة، والتحرّر من إغراءات اللذة والحياة العابرة؟ "[4]. وركزوا على قضية تعدد الزوجات في الفكر الإسلاميّ للدلالة على أنّ الإسلام " دين فاسد وشرّير، يمتدح الفجور والزنا والعنف "[5].

وقد ساهمت الدعاية الصليبية بوسائلها كلّها في الهجوم على الإسلام، وعلى رمزه الرسول، محمد، صلى الله عليه وسلّم،: الخطب، والشعر، والأغاني، وكتب التاريخ...، وقد سبق أن أشار البحث إلى أنشودة رولان التي جعلت محمداً، صلى الله عليه وسلم، وثناً يعبده المسلمون، وهذا فوشيه الشارتري، يشير إلى ذلك في قوله مهاجماً الديانة الإسلامية،

---

[1] – أحد قادة الصليبيين في الحملة الصليبية الأولى .

[2] – الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص65 .

[3] – انظر تفصيل ذلك: أفاية، الغرب المتخيّل، ص138 وما بعدها .

[4] – أفاية، الغرب المتخيّل، 139 . وانظر الحملات الصليبية والشرق اللاتيني، ص40 .

[5] – ميشيل بالار،الحملات الصليبية والشرق اللاتيني، ص40 .

ومتحدثاً عن تبجيلهم الأقصى، معبد السيد أو الله في المصطلح الصليبي: " **كان الشرقيون يكنون فائق الاحترام لمعبد الله، وقد فضّلوا أداء صلاتهم هنا عن أي مكان آخر، مع أنّ صلاتهم ذهبت سدى، لأنّها قدّمت لوثن نُصب باسم محمد، ولم يسمحوا للمسيحيين بدخول الهيكل** "[1]. وفي موضع آخر يقول: " **لقد مارس الشرقيون هنا عبادتهم الوثنية بشعائر خزعبلية** "[2]. وقد أدرك المسلمون هذه المواقف كلّها، فعبّروا عنها في آدابهم، ولا أدلّ على ذلك ممّا ورد في كتاب الاعتبار، لأسامة بن منقذ، ورحلة ابن جبير، وألف ليلة وليلة في قصتي " علي نور الدين ومريم الزنارية "، والأمير شجاع الدين والمرأة الفرنجية "، وهذه القصص تجسّد بحقّ صورة المسلمين النمطية في أذهان الصليبيين.

كتب التاريخ

ساهمت الكتابات التاريخية عن الحروب الصليبية في الدعاية لهذه الحروب، وبخاصة كتب أولئك الذين شاركوا فيها، وكانوا شهود عيان على أحداثها أو بعض تلك الأحداث، أمثال: فوشيه أوف الشارتري، وريموندا جيل، وبطرس تيدبوده، وآنا كومينا، ووليم الصوري، وجوانفيل، وكتاب يوميات صاحب أعمال الفرنجة. وقد أدّت هذه– الكتب في لغتها وتعبيراتها، وسرد أحداثها دوراً عظيماً في التحريض على المسلمين، وإبراز شرعية ما قام به الصليبيون، وأنهم أهل إيمان وحقّ، استردوا الأرض المقدسة من الوثنيين الهمجيين أي المسلمين، وتبدو الصورة النمطية للمسلمين جلية في هذه الكتب، وكأنهم فيها بشر لا يستحقون الحياة، وهي صورة تنفيرية مقصودة هدفها إثارة الحقد عليهم، وتكشف عن العنصرية وعن الكره العميق، الذي كان يكّنه الغرب الأوروبي للمسلمين في العصور الوسطى. فهذه آنا كومينا التي اعتادت أن تطلق على المسلمين مصطلح البرابرة تقول في وصفهم: " هم عبيد لمعاقرة الخمور، ولعبادة الشيطان، وفي الحقيقة من الملاحظ أنّ أبناء إسماعيل يُسيّرون من قبل إبليس والشيطان، وهم منغمسون في جميع أنواع الرذائل الجسدية، وهم إن خُتنوا في أجسادهم، لم يُختنوا أبداً في طباعهم. وإذا ما أردت معرفة الحقيقة، فاعلم أنّ أبناء إسماعيل هم عبيد، لا بل عبيد ثلاث مرات لجميع شرور أفرودويت

---

[1] – الشارتري،تاريخ الحملة إلى القدس، ص72–73 .

[2] – المصدر نفسه، ص75 .

وآثامها، حيث أنّهم يعبدون معها عشتار وعشتروت..."[1]. ويكفي للتدليل على دور كتب التاريخ في الترويج للحروب الصليبية، الوقوف على تحليل ما كتبه بطرس تيدبوده عن سقوط القدس بيد الصليبيين، وترجمه إلى العربية حسن عبد الوهاب حسين[2]، كتب تيدبوده عمّا شاهده بعينيه، فهو حين يصف الصليبيين يختار لهم ألفاظاً وعبارات: المؤمنين، وجيش الضريح المقدس، وفرسان الصليب، وفرسان بيت المقدس، والصليبيين، والقتلى المساكين، كما يبدو في قوله: " وصل ريموند أوف سان جيل وجودفري[3] ومعهم **المؤمنون السعداء** إلى مشارف بيت المقدس ". أمّا المسلمون، فهم وثنيون وكفار وأعداء: " وتسلقه فرساننا والتحموا **بالوثنيين** "، ولقي " كثير من المسيحيين الآخرين حتفهم، بيد أنّ قتلى **الأعداء** كانوا أكثر "، ويقول: " بيد أن تفوّق **الوثنيين** على رجالنا كان كبيراً، حتى إنّهم طوّقوا الصليبيين من جميع الجهات، وقتلوا إكهارد أوف مونتمريال **ومشاة مساكين** ". وفي هذه العبارة الأخيرة ما يذكرنا بالدعاية الصهيونية، والإعلام الصهيوني حين يصف الفلسطينيين مخرّبين قتلة، وقتلى اليهود أبرياء. ويقول: " شكّل **الكفّار** صفّين للقتال عندما شاهدوا **فرسان بيت المقدس** ".

وتتمثل الدعاية عند تيدبوده في تصويره بطولة الصلبيين في المعارك، وفرار المسلمين من أمامهم، وحديثه عن الشعارات التي كانوا يهتفون بها، وهم يواجهون المسلمين: "وتصدّى لهم المسيحيون، وهم يهتفون باسم المسيح المفدّى والضريح المقدّس، وألقوا بأنفسهم في شجاعة فائقة على أعدائهم....". وتبدو تلك الدعاية في تمجيده القتلى من الصليبين: "وأراد أحد رجال الدين أن يدخل الكنيسة حيث وصل الموكب إلى مدخل الدير، فتلقّى ضربة في منتصف جبهته، ومات على الفور، **إنّني أعتقد أنّ روحه سوف تسكن مع المسيح إلى الأبد في عالم لا آخر له آمين**". وضرب هذا الراهب المؤرخ على الوتر الديني حين وصف الأماكن المقدسة وصفاً شاعريا: " في هذا المكان رحلت مريم عن العالم، وقطع الربّ الخبز مع حواريه، ودخل الروح القدس في قلوبهم "، وحين وصف تجمّع الأساقفة، ورجال الدين وهم يبتهلون إلى الرب " أن يعتق مدينتهم المقدسة والضريح

---

[1] – آنا كومينا، الألكسياد،ص 113 .

[2] – ضمن كتابه " مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية "، ص20–27 .

[3] – من قادة الصليبيين في الحملة الصليبية الأولى .

المقدّس من أيدي الوثنيين "، وأخيراً في حديثه عن إعانة المسيح لهم على ما أنجزوه في القدس: " سقطت بيت المقدس في الخامس عشر من يوليو، سادس أيام الأسبوع، **بمساعدة سيدنا يسوع الذي له المجد والشرف أبد الآبدين آمين** ".

وأكثرت هذه الكتب من الحديث عن الرؤى والأحلام[1]، وسعت إلى تأكيد الطابع الأخروي للحملة الصليبية الأولى، وبيان أنّها " مسيرة إلى لقاء رجوع المسيح، إلى اختتام الزمان، والصليبيون الذين اختارهم الربّ عليهم تحرير القدس، لكن عليهم بخاصة أن يستعدوا للمجيء الثاني للمسيح، الذي سوف يدخلهم في ملكوت مجده "[2].

الدعاية الاقتصادية

ذهب بعض الباحثين في الحروب الصليبية إلى أنّ النمو الديموغرافي في الغرب الأوروبي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، جعل الحروب الصليبية ملحة، وصمّام أمان للغرب، و" مخرجاً ضرورياً للفرسان الذين لا يحوزون أراض، وللفلاحين الذين لا جذور لهم، وفرصة للعائلات وفيرة العدد للتخلص من الأفواه التي لا جدوى منها "[3]، وهي فرصة لتنشيط الحركة التجارية بين الشرق والغرب، ولكنّ ميشيل بالار ردّ هذه الأسباب، وعدّها غير مقنعة " لأنّ الفائض الديموغرافي في الغرب الأوروبي " قد عرف أعظم اتّساع له في الشطر الثاني من القرن الثاني عشر، أي بعد عدة عقود من تدشين الحملات الصليبية. ومن جهة أخرى، تثبت البحوث الأخيرة أنّ الرحيل من أجل الحملة الصليبية قد أدى إلى أعباء ضخمة في عائلات المتطوعين، التي اضطرت إلى رهن أراض للحصول على تمويل من المؤسسات الكنسية، ولدى العودة، كان المقابل هزيلاً: إنّ عدداً جدّ محدود من الصليبيين يرجع إلى الغرب حائزاً على كنوز أو على أشياء ذات قيمة، وغالباً ما يصبح من الصعب سداد الديون سعياً إلى استرداد الأراضي المرهونة "[4]. أمّا التبادل التجاري، فكان قائماً بين الشرق والغرب ونشيطاً قبل الحروب الصليبية بقرن

---

[1] – انظر ص 13 من هذا البحث .

[2] – ميشيل بالار، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني، ص32.

[3] – ميشيل بالار،الحملات الصليبية والشرق اللاتيني، ص30، وانظر أرنست باركر، الحروب الصليبية، ص21 .

[4] – ميشيل بالار، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني، ص30–31 .

من الزمان، و" احتلال الصليبيين فلسطين لم يشجّع حركة الأعمال التجارية إلاّ بدرجة متواضعة "[1]. ولكنّ هذا لا يعني أن الترويج الاقتصادي لم يكن قائماً، ولكنّه كما يرى جوناثان سميث جاء في مرحلة لاحقة، إذ حدث تحوّل في الدعوة للحملة الصليبية وهدفها، كما يبدو في قوله: وبحلول " القرن الثالث عشر يبدو أنّ القوّة المحركة الرئيسية كانت هي السيادة الإقطاعية "، " ويبدو أنّ هذا الأمر أثر على صورة المسيح التي كانت تُقدّم في الدعاية، التي كانت على الدوام استجابة للقيم الاجتماعية لدى الجمهور الذي تخاطبه، وعندما كان المسيح يوصف عموماً باعتباره الأب الذي فقدَ أملاكه، وينادي أبناءه لكي يستعيدوها له، غالباً ما كانت تتراءى صورة ملك أو سيّد إقطاعي يطلب الخدمة من رعاياه، وصورة المسيح كسيّد إقطاعي....، يمكن أن نجدها في أغنية يعود تاريخها إلى الحملة الصليبية الثانية، ولكنها انتشرت في كلّ مكان سنة 1200م "[2]. والواقع أن هناك دعاية مبكرة للجانب الاقتصادي، وتتجلّى في الرحلات التي قام بها رجال دين غربيون في السنوات التي تلت مباشرة سقوط القدس بيد الصليبيين[3].

إنّ الدعاية الصليبية استثمرت " كلّ وسائل التعبير والحركة "، " لإقامة صرح الصور النمطية الهائل الذي صنعته المسيحية الغربية عن الإسلام "[4]، ولحثّ المسيحيين الغربيين على تحقيق أهدافها، في السيطرة على الأراضي المقدسة، وإعادة الاعتبار للكنيسة ورجالاتها.

المبحث الثاني

صورة المسلمين في الرحلات الأوروبية والروسية

نبذة عن الرحلات موضع الدراسة

1- وصف رحلة الحاج سايلوف لبيت المقدس والأراضي المقدسة (1102-1103م)

رحالة إنجليزي، وسايلوف لقب أطلق عليه، " لكثرة ترحاله وأسفاره، وهو يشبه تعبير

---

[1] – المرجع نفسه، ص30 .

[2] – سميث، حالة الصليبيين الذهنية تجاه الشرق، ص133-134 .

[3] – سيأتي الحديث عن ذلك في الصفحات القادمة إن شاء الله .

[4] – أفاية، الغرب المتخيل، ص155 .

كلب البحر "[1]. زار هذا الحاج الأوروبيّ الأراضي المقدّسة في فلسطين في تشرين أوّل سنة 1102م، بعد أن مضى على استقرار الصليبيين " في فلسطين نحو ثلاث سنوات وثمانية أشهر". ومن هنا تكمن أهمية هذه الرحلة لأنّها " جاءت في بداية الاستقرار الفرنجي في الأراضي المقدّسة "[2].

وهي رحلة صغيرة في عدد أوراقها قياساً إلى رحلات الآخرين من أبناء جلدته، وتتقاطع معها في أنّها ربطت بين الأماكن المقدسة وتاريخها الوارد في الكتاب المقدّس، فكانت عاطفتها الدينية قويّة جياشة. وفي ثنايا هذه الرحلة قدّم سايلوف صورة للمسلمين، وإن كانت هذه الصورة قليلة فيها، ولكنّها تكشف عن الخلفية العدائية التي كان يكنّها للمسلمين، وعن تحامله عليهم[3].

2- رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الديار المقدسة (1106-1107م)

زار الحاج الروسي دانيال الراهب الأراضي المقدسة في الفترة الواقعة من سنة 1106-1107م، وهي توافق 500-501هـ. أي عقب سيطرة الصليبيين على بيت المقدس بثماني سنوات، ولهذا تعدّ رحلته وثيقة مهمة عن القدس والأراضي المقدسة في فلسطين والأردن ولبنان في بداية الاستقرار الصليبي في المنطقة[4]. أقام دانيال الراهب في القدس كما يقول هو " ستة عشر شهراً في محل إقامة الحجيج، في دير القديس سابا، وهكذا كان بإمكاني زيارة واستكشاف جميع الأماكن المقدسة، على الرغم أنّه كان من غير الممكن زيارة واستكشاف جميع الأماكن المقدسة دون وجود دليل ومفسّر، لذلك فقد أعطيتُ كلّ ما أستطيع كمكافأة لهؤلاء الذين كانوا يعرفون ويدلونني على الأماكن المقدسة في المدينة والمواضع الأخرى، ليتسنى لي رؤية كلّ شيء بالتفصيل، وقد نجحتُ في ذلك "[5]. وبلغ عدد المواضع التي زارها هناك سبعة وتسعين موضعاً " وصفها وصفاً واقعياً من وجهة نظره، وكان أوّلها بيت المقدس، ودير القديس سابا، وآخرها النور المقدّس "، "

---

[1] – الرحالة الأوروبيون، ص42 .

[2] – وصف رحلة الحاج سايلوف، المقدمة ص5 . وانظر الرحالة الأوروبيون، ص42 .

[3] – انظر مقدمة الرحلة، ص7 .

[4] – انظر الرحالة الأوروبيون، ص73 .

[5] – رحلة دانيال الراهب، ص41 .

وحظيت بيت المقدس بنصيب وافر في الرحلة "[1].

أمّا عن دواعي رحلته، فعبّر عنها في بداية رحلته ونهايتها، فبيّن أنّ " الحنين المتعطّش لرؤية مدينة بيت المقدس وأرض الميعاد "[2] حفزه على القيام برحلته. وتحدّث عن الأماكن التي زارها في الأراضي المقدسة، وهي لا تتجاوز تلك المتعلقة بالمسيح وأمّه العذراء، يقول: "ورأيتُ الأماكن المقدسة، وقمتُ بزيارة معظم المناطق في الجليل، وجميع الأماكن المقدسة حول بيت المقدس التي عانقها المسيح بقدميه، وحيث ظهرت عليه المعجزات"[3].

وأوضح دانيال سبب تدوينه رحلته، فقال: " وإني أكتب عن رحلتي من حبي لتلك الأماكن المقدسة، وحتى يتسنّى لي أن أتذكّر كلّ ما سمح لي الله برؤيته بالرغم من عدم جدارتي، وخشية من أن أكون ذلك العبد الفاسد التي يدفن الموهبة التي منحها له مولاه. قمتُ بالكتابة من أجل المؤمنين ليتسنّى لهم عند سماع وصف هذه الأماكن المقدسة أن ينتقلوا ذهنياً من أعماق أرواحهم، وهكذا يكسبون من الله نفس الثواب الذي حصل عليه من زاروا تلك الأماكن "[4]. ويبدو من الرحلة أن هناك أسباباً أخرى سعى الرحالة إلى تحقيقها من خلال تدوين الرحلة، وهي:

1- تقديم صورة مشوهة عن المسلمين، تزيد من صورتهم السلبية، ومن كره الغرب لهم.

2- حملة ترويجية للأماكن المقدسة، كي يقصدها الغربيون، ويستقروا فيها، ويخلّصوا ما تبقّى منها من أيدي المسلمين، ولهذا نجده يُعلي من شأن تلك الأماكن حين نقل تلك المشاعر الجيّاشة التي يحسّ بها المؤمنون، على حدّ تعبيره، عند مشاهدتها. وحين ركّز على جمال تلك الأماكن، وخصوبة أرضها وخيراتها. وأخيراً في حديثه الخيالي عن النور الذي يهبط على الضريح المقدس في القدس، فيضيء منه المسيحيون قناديلهم والقناديل المحيطة بالضريح. وقد شكّل ذلك الوصف جزءاً كبيراً من رحلته.

أمّا عن منهجه في رحلته،فعبّر عنه بقوله: " اغفروا لي يا إخواني، ويا آبائي، ويا

---

[1] – مقدمة الرحلة، ص14 .

[2] – رحلة دانيال الراهب، ص39 .

[3] – المصدر نفسه، ص39 .

[4] – رحلة دانيال الراهب، ص40 .

أسيادي. لا تحتقروا الجهل الذي قادني لوصف الأماكن المقدسة، بيت المقدس، وأرض الميعاد بكلمات بسيطة، دون مهارة أدبية، وإذا كنتُ كتبتُ دون ثقافة، أو دراية، فعلى الأقل ليس هناك كذب، وإنني لم أصف شيئاً لم أره بأمّ عيني "[1]. فهو يحاول إقناع المتلقين بصدق ما يقول، وبصدق ما جاء به من وصف ومعلومات، ولكنّ هذا المنهج وإن كان يصدق على معلومات ليست بالقليلة قدّمها في رحلته، فإنّه لا يصدق على الصورة المشينة التي رسمها للمسلمين. وهي بالضرورة صورة مسبقة في ذهن الرحالة عنها لا تدعمها معايشة أو اختلاط بالمجتمع الإسلامي، ويؤكد ذلك دانيال نفسه، فهو بعد أن ذكر انّه لم يصف إلاّ ما رآه، عاد ليقول: " وبعون من الله قمنا بزيارة تلك الأماكن دون أن نقابل الكفّار "[2]. ولا يخفى أن الكفار هم المسلمون في نظره. ويناقض ما تقدّم كلام كاتب مقدمة الترجمة الإنجليزية للرحلة، الذي رأى أن الرحلة تتميّز " بالصدق الواضح "[3].

وتتفق رحلة دانيال الراهب في نهجها مع بقية الرحلات الأوروبية باعتمادها في وصف الأماكن المقدسة على الكتاب المقدس، وربطها بالتاريخ المسيحيّ.

اهتم الرحالة برسم صورة للمسلمين في الأراضي المقدسة، وقد أشار البحث سابقاً إلى أنّ هذه الصورة مشوّهة بشعة، تخالف الحقيقة في تلك الحقبة الزمنية. أما بلادهم، فقدّم لها صورة مشرقة. وكلا الصورتين كان دانيال الراهب يخفي وراءهما هدفاً، وهو زيادة العداء للإسلام والمسلمين أوّلاً، وترغيب المسيحيين في الغرب الأوروبي بالأراضي المقدسة.

لقد وقف دانيال الراهب على بعض أخلاق المسلمين، وصفاتهم، وجوانب من حياتهم الاجتماعية والاقتصادية، ونعتهم بنعوت تكشف عن الخلفية العدائية عند هذا الرحالة.

3- وصف الأرض المقدسة في فلسطين حوالي 1130م-525هـ، للرحالة فيتلوس.

يُكتب اسم هذا الرحالة بصور متعددة مثل فريتلوس وفيتلوس. والمعلومات حوله قليلة[4]، وكل ما هو معروف أنّه " كان رئيساً للشمامسة في كنيسة أنطاكية " عام 1200م[1]،

---

[1] – المصدر نفسه، ص130 .

[2] – المصدر نفسه، 129 .

[3] – مقدمة الترجمة الإنجليزية، ص27 .

[4] – انظر محمد عوض، الرحالة الأوروبيون، ص104 .

ويرى محمد مؤنس عوض أنّ هذا القول " لا ينطبق على الواقع في شيء على الأرجح، نظراً لاتساع المسافة الزمنية بين الرحلة ذاتها، والتاريخ المذكور لتولية فيتلوس ذلك المنصب، والمرجح أنّه كان أحد الرحالة الأوروبيين الذين زاروا مملكة بيت المقدس خلال القرن الثاني عشر الميلادي "[2]. والرأي الراجح في توقيت هذه الرحلة كما يذهب إلى ذلك محمد مؤنس عوض، ومترجما الرحلة سعيد البيشاوي، وفؤاد الدويكات أنّها تمّت " خلال العقد الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي، في الفترة الواقعة ما بين أعوام 1118–1130م، وعلى وجه التحديد بعد عام 1124م "[3].

وقد ركّز الرحالة في رحلته الصغير نسبياً قياساً إلى رحلات الأوروبيين في العصور الوسطى على الجانب الديني في الأراضي المقدسة في فلسطين والأردن ولبنان، وجاء حديثه عنها من وحي الكتاب المقدس أي العهدين القديم والجديد. فقد ربط تلك الأماكن بالتاريخ المسيحي، وبمعجزات السيد المسيح، عليه السلام، وأكثر من " ذكر الكنائس والأديرة والمزارات المقدسة "[4]، وتناول " الأعياد الدينية التي احتفلت بها مملكة بيت المقدس الصليبية "، التي " كانت مجالاً خصباً لجذب الآلاف من الحجاج للقدوم إلى فلسطين للاحتفال بأعيادهم بها "[5]، وساهم في جذب هؤلاء الحجاج وغيره التركيز على وصف جمال الأراضي المقدسة، ثمّ الناحية الاقتصادية وبخاصة خصوبة أرضها، ووفرة مياهها، وخيراتها، وقد بدا ذلك عند فيتلوس، وعند غيره من الرحالة الأوروبيين الذين زاروا المنطقة في العصور الوسطى[6] .

ومن بين المعلومات التي قدمّها فيتلوس في رحلته حديثه عن المسلمين، فرسم لهم صورة لم تنفصل معالمها عن الصورة التي رسمها أقرانه من الرحالة الأوروبيين في

---

[1] – مقدمة الطبعة الإنجليزية للرحلة، بقلم جيمس ماكفرسون، ص23 . وانظر الرحالة الأوروبيون، ص104 .

[2] – محمد عوض، الرحالة الأوروبيون، ص104–105 .

[3] – انظر محمد عوض، الرحالة الأوروبيون، ص105، فيتلوس، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ص10 من مقدمة الطبعة العربية .

[4] – الرحلة، مقدمة الترجمة العربية، ص11 .

[5] – المرجع نفسه، ص13 .

[6] – انظر محمد عوض، الرحالة الأوروبيون، ص104 .

العصور الوسطى ، فقد بدا فيها عنصرياً متعصباً ضدّهم إذ نعتهم بنعوت قصد منها تحقيرهم وإهانتهم. وتناول فيتلوس جوانب من حياة المسلمين الاجتماعية والاقتصادية، وبعض العلاقات السياسية والحربية التي كانت بين المسلمين والصليبيين، وهي تعبّر عن الكره المتبادل بين الجانبين.

4- "وصف الأراضي المقدسة في فلسطين" للرحالة الألماني يوحنا فورزبورغ

يوحنا فورزبورغ أحد الرحالة الأوروبيين الألمان، والمعلومات عنه قليلة يستمد بعضها من رحلته، فقد " كان راهباً في كنيسة فورزبورغ، ثم صار أسقفاً لتلك الكنيسة "[1]. زار الأراضي المقدسة في فلسطين في القرن الثاني عشر الميلادي إبّان الاحتلال الصليبي للقدس وبعض مدن الساحل الفلسطينيّ، " بين عامي 1160-1170م "[2]. " وقد حظيت القدس بتقديره واهتمامه، ممّا يؤكّد هذا أنّه خصّص ستة عشر فصلاً من مجموع فصول الرحلة البالغ عددها سبعة وعشرين فصلاً للحديث عن بيت المقدس "، " درس يوحنا فورزبورغ الأرض المقدسة بما فيها بيت المقدس من خلال المعلومات الواردة في الكتاب المقدّس، هذا مع الاهتمام قليلاً بالظروف المعاصرة للمنطقة، والتطوّرات التي شهدتها المدينة "[3].

قدّم الرحالة في ثنايا وصفه الأراضي المقدسة صورة للمسلمين الذين كانوا يقطنونها، صحيح أنّها معلومات قليلة، ولكنّها مهمّة، وإذا ما تظافرت مع غيرها مما قدّمه الرحالة الأوروبيون في تلك الحقبة الزمنية فإنّها تقدّم صورة متكاملة عن المسلمين في أذهان أولئك الوافدين في العصور الوسطى.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الرحلة كانت إبّان الاحتلال الصليبيّ لبيت المقدس، ومن هنا تكمن أهميتها في أنّها تقدّم صورة عن المحتل الصليبيّ، وعن جنسيات المحتلين، وعن الطريقة التي كانوا يديرون فيها المدينة المقدسة، وعن المعالم الدينية التي غيّر المحتلّ فيها. ولعلّ أهم معلوماتها إبرازها ذلك التنافس بين الفرنسيين والألمان، فقد حاول الفرنسيون التقليل من الدور الذي أدّاه الألمان في الاستيلاء على بيت المقدس حين ادّعوا

---

[1] – المرجع نفسه، ص124 .

[2] – المرجع نفسه، ص124 .

[3] – مقدمة الرحلة، ص14 .

تفرّدهم بالانتصار، وطمسوا نقوش الألمان التي خلّدوا فيها دورهم[1]. وتحدّثت الرحلة عن النفوذ الواسع الذي كان يتمتّع به ركيزتا الجيش الصليبيّ فرقتا الاسبتار والداويّة[2].

5-وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، للرحالة الألماني ثيودوريش (557هـ-1161م إلى 559هـ-1164م)

ثيودوريش رحالة ألمانيّ " من الشخصيات غير المعروفة، فلم يعرف عنه سوى اسمه الأول، وبقي اسم عائلته مجهولاً "، وهو مسيحيّ متعصب عمل " أسقفاً في مدينة فورزبورغ الألمانية "، ولهذا تميّز " بدرجة عالية من التديّن مع ثقافة دينية رفيعة "[3]. وخلص المترجمان إلى أنّها كانت ما بين سنة " 557هـ-1161م / ذي الحجة- 559هـ / أكتوبر 1164م "[4].

أمّا عن الهدف من القيام بهذه الرحلة وسببها، فقد عبّر ثيودوريش في غير موضع من رحلته عن رغبته في نقل تجربته ومشاعره الدينية عقب زيارة الأماكن المرتبطة بالمسيح وآلامه إلى أولئك الذين لم يتمكنوا من زيارتها، ولم يشعروا بالنشوة الروحية عند تلك الزيارة، واستحضار سيرة المسيح فيها، لعلّ هذا الوصف يشعرهم بالاشتياق والرغبة في الذهاب إليها، أو كما يتجلى في قوله: " أنّنا قمنا بهذه التجربة بهدف أنّه عند قراءة هذا الوصف أو الرواية فإنّه من الممكن أن يتعلّم دائماً أن يتذكّر المسيح في ذاكرته، وعن طريق المحبة يشعر بالشفقة عليه لأنّه عانى قرب هذه الأماكن، وعن طريق الشفقة قد يصل لإحراز الاشتياق إليه، وعن طريق الشوق قد يغفر خطاياه، وعن طريق الغفران من الخطايا قد يحرز الرحمة، وعن طريق الرحمة قد يصبح مشاركاً في مملكة الجنة "[5]. ولا يخفى أنّ هذه الكلمات التي تضرب على الوتر الديني هي وسيلة إعلامية تسعى في نهاية المطاف إلى إيجاد علاقة روحية متينة بين المسيحيين والأماكن المقدسة في فلسطين المرتبطة بشخصية المسيح، عليه السلام، ثم زيارة تلك الأماكن، والاستيطان فيها والدفاع

---

[1] - انظر فورزبورغ، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ص73 .

[2] - لمزيد من التفصيل: انظر الرحالة الأوروبيون، ص 124 وما بعدها .

[3] - الدراسة التحليلية، ص11، محمد عوض، الرحالة الأوروبيون، 180 .

[4] - الدراسة التحليلية، ص14 . وهما بذلك خالفا محمد مؤنس عوض الذي حدد تاريخها بين عامي 1171-1173 .

[5] - ثيودوريش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ص53 .

عنها. وهذا ما يتّضح في قوله في موضع آخر عن معلومات هذه الرحلة ": ويحدوني الأمل أن تثير عقول أولئك الذين يقرأونها أو يسمعونها من أجل محبته من خلال تعرّفهم عن الأماكن التي تمّ وصفها "[1]. ولعل هذه الكلمات هي التي دعت مترجمي الرحلة إلى القول عنها: إنّها كانت " مجموعة من الرسائل والتقارير ترسل إلى الغرب الأوروبي، وخاصة إلى رجال الدين اللاتين المسؤولين عنه ليقوموا بنشرها وتوزيعها على الناس، لا سيّما أنّ هذا الرحالة كان كاهناً له ارتباطاته وعلاقاته بالجهاز الكنسي الأوروبيّ "[2]، وذلك لحثّ الناس على المشاركة في الحروب الصليبية والاستقرار في الأراضي المقدسة. وأكّد المترجمان وجهة نظرهما حين استعرضا أسلوب الكاتب وتركيزه في رحلته على الجانب الديني، ثمّ الاقتصادي[3].

وفي الحقيقة لا ينفصل هدف ثيودوريش عن غيره من الرحالة الأوروبيين في العصور الوسطى، وفي فترة الحروب الصليبية تحديداً، فقد كانوا مستشرقين،هدفهم التحريض على المسلمين، وتشويه صورتهم، والترويج للديانة المسيحية، وللأماكن المقدسة، وللأرض التي تحتضن هذه الأماكن، فرحلاتهم جزء من الدعاية الإعلامية للترويج للحروب الصليبية.ويؤكد ذلك تقارب الأساليب التي اتّبعها هؤلاء في كتابة رحلاتهم، والعبارات الترويجية التي زخرت بها تلك الرحلات، حين تحدثوا عن الأماكن المقدسة، وعن الصليبيين الذين كانوا يقطنون القدس وما حولها، وبخاصة حديثهم عن قوّة فرق الجيش الصليبيّ وغناها. وكان ثيودوريش أحد المكثرين من هذه العبارات، والأوصاف، كما يبدو في حديثه عن النار المقدسة[4]، وقوله واصفاً كنيسة الصليب في جبل الجلجثة: " لا يوجد عمل تحت السماء يمكن أن يُضاهى بها "[5]. ويتجلى الترويج إذ تحدّث عن فرسان الفرنج: " وليس سهلاً على أيّ شخص أن يصل إلى فكرة عن مدى قوّة وغنى فرسان المعبد، لأنّهم وفرسان الاسبتارية قد أخذوا في جميع المدن والقرى تقريباً مع جبل القدس...إلى جانب العديد من العزب والضياع والأملاك غير المعدودة التي عُرف جيداً

---

[1] – المصدر نفسه، ص184 .

[2] – الدراسة التحليلية، ص15 .

[3] – المرجع نفسه، ص17 .

[4] – انظر ثيودوريش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ص68–69 .

[5] – المصدر نفسه، ص74 .

أنهم يملكونها في أراض أخرى "[1]. هذا فضلاً عن عباراتهم التنفيرية من المسلمين، وتلك الصورة النمطية المقززة التي رسموها لهم.

أمّا عن التدوين النهائي لهذه الرحلة، فيرى المترجمان أنّ " صياغة هذه المذكرات والتقارير على هيئة كتاب " " تمّت بعد عودة ثيودوريش إلى ألمانيا، وخاصة بعد استعادة المسلمين بيت المقدس، ممّا دفع رجال الدين إلى تنشيط حركتهم الإعلامية داخل أوروبا، لإقناع الناس وحثّهم على زيارة بيت المقدس، وبذلك يكون هذا الكتاب من مظاهر الدعاية الدينية التي رعتها الكنيسة، لحثّ الناس على المشاركة في تخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين "[2].

أما مضامينها، فتقدّم " هذه الرحلة تفاصيل دقيقة جدا عن الأماكن المسيحية المقدسة في فلسطين، وتميّز الرحالة في قدرته على الربط بين هذه الأماكن وبُعدها التاريخيّ من الناحية الدينية فقط. كما برع في إيجاد الصلة بين الأماكن المقدسة والشعائر التعبيرية للمسيحيين، وكذلك الأعياد الدينية ذات العمق التاريخيّ ". وبرز اهتمامه بالأماكن المقدسة في بيت المقدس وما يجاوره أكثر من غيره من المناطق الأخرى، إذ بلغ ما كتبه عنها " ضعفي ما كتبه عن المناطق الأخرى "[3].

أمّا عن صورة المسلمين في هذه الرحلة، فتبدو شبيهة بما ورد عند مَن سبقه، أو جاء بعده من الرحالة الأوروبيين. لقد تجاهل ثيودوريش الوجود الإسلامي، والتاريخ الإسلامي في الأماكن المقدسة التي عني بوصفها والحديث عنها، وجاءت المعلومات عنهم معبرة عن الصورة النمطية التي كان يراهم من خلالها الأوروبيون في تلك الحقبة الزمنية، تلك الصورة السلبية التي تسعى إلى تشويههم وإبراز كفرهم، ووثنيتهم، وعدائهم للمسيحيين، واغتصابهم الأماكن المسيحية. أضف إلى ذلك أنّ ثيودوريش أشار إلى قوّة المقاومة الإسلامية يومذاك، وأثرها في حياة الصليبيين ونفسياتهم، وتناول جوانب اقتصادية واجتماعية وحضارية في الأماكن المقدسة، ولكن ليس باعتبارها أماكن إسلامية بل مسيحية صليبية.

---

[1] – المصدر نفسه، ص88 .

[2] – الدراسة التحليلية، ص19 .

[3] – المرجع نفسه، ص20 .

7- وصف الأرض المقدسة، للرحالة الألماني الحاج بورشارد من دير جبل صهيون

زار الرحالة الألماني بورشارد الأراضي المقدسة في فلسطين في حقبة زمنية حرجة في القرن الثالث عشر الميلادي، السابع الهجري، وتحديداً في العصر المملوكي في عهد السلطان الظاهر بيبرس ثمّ عهد المنصور سيف الدين قلاوون الألفي. وقد شهدت هذه الحقبة استكمال تحرير ما تبقى من أرض إسلامية في فلسطين ولبنان من الاحتلال الصليبيّ[1]، وتوّجت سنة 690هـ حين تمكن الأشرف خليل بن قلاوون من إخراج الصليبيين نهائياً من بلاد الشام في معركة عكا.

أقام بورشارد في الأراضي المقدسة عشر سنوات، فتعرّف إلى كثير من الدقائق والتفاصيل، ومن هنا يُعدّ كتابه " من أهم كتب الرحالة الأوروبيين، إن لم يكن أهمها على الإطلاق، وتكمن أهمية هذا الكتاب في أنّ مؤلفه تطرّق لجميع مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية والسياسية في بلاد الشام في تلك الفترة من الحروب الصليبية، فضلاً عن أنّه استقرّ فترة طويلة في الأرض المقدسة، وتجوّل في مختلف دروبها ومسالكها، ووصفَ مدنها وقراها وقلاعها وأنهارها وعيونها، وتحدّث عن الأماكن المقدسة عن معرفة تامة، ولم يكن متحيّزاً في كتاباته "[2]. وتتجلى موضوعيته هذه في أنّه تحدّث عن الطوائف والأجناس والديانات المختلفة التي سكنت الأراضي المقدسة، وقدّم لها صورتين: الأولى سلبية، والثانية إيجابية، وشملت هذه الصورة المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى، وقد كان شديد الانتقاد لطوائف المسيحيين قبل المسلمين، ومن الأمثلة على ذلك من رحلته قوله واصفاً بعض المسيحيين: " وللحقيقة فإنّ رجالنا اللاتين هم الأسوأ من جميع أهل الأرض "[3]، " الذين ينحدرون من سلالتهم أحفاد أكثر حقارة ورداءة، وهم يعيشون في الأراضي المقدسة بأقدام ملوّثة تدنّس المقدّسات "[4]. ويبدو أنّ بورشارد قد شكل صورة نهائية سلبية عن سكان الأرض المقدسة، عبّر عنها بهذا الأسلوب القاسي إذ قال: " ولكن لا يمكنني تسمية أولئك الذين يقطنون هناك رجالاً أقوياء،

---

[1] –انظر مقدمة الرحلة، ص11 .

[2] – المرجع نفسه، ص11 .

[3] – بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص171 .

[4] – المصدر نفسه، ص172 .

ولكنّهم يُعتبرون الأسوأ، والأكثر حقارة من الأوغاد، وهم يقيمون في الأرض المقدسة، وممّا يدعو للعجب أنّ هذه الأرض لها القدرة على تحمّلهم "[1]. ولعلّ هذه دعوة للأوروبيين كي يعودوا مرّة أخرى ليخلّصوا هذه الأرض من سكانها الذين يقطنون فيها، وربما كان ينتقد المسيحيين المقيمين في الأراضي المقدسة ليضع يده على الأسباب الحقيقية التي وقفت وراء الهزائم المتكررة للأمة الصليبية، وتوّجت بضياع القدس منهم.

لقد أكثر بورشارد من الحديث عن المسلمين في رحلته، ورسم لهم صورة مفصّلة قلّما عني برسمها غيره من الرحالة الأوروبيين في العصور الوسطى، ومرد ذلك المدة الزمنية الطويلة نسبياً التي قضاها الرحالة في بلاد خضعت في معظمها للمسلمين، فوقف على أخلاقهم ودينهم وطوائفهم، ومظاهر حياتهم المختلفة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعمرانية وغيرها، وتتجلّى في رحلته صورة نمطية سلبية للمسلمين، وأخرى إيجابية، لعلّها جاءت عقب احتكاكه بهم، ومعاشرتهم.

صورة المسلمين:

تكاد هذه الرحلات تتفق في الصورة التي رسمتها للمسلمين، مثل اتّفاقها في المنهج والهدف، فهناك عناصر مشتركة كثيرة بينها، تجعل من السهل على البحث أن يؤطرها في عناوين، وهي الآتي:

عقيدة المسلمين

إنّ الحديث عن عقيدة المسلمين شكّل جزءاً كبيراً من الصورة التي رسمها الرحالة الغربيون للمسلمين في العصور الوسطى، ولا يعني ذلك أنّهم وقفوا على تفصيلات الفكر الإسلامي والعقيدة الإسلامية، وإنما اكتفوا بتقديم الصورة النمطية عن الديانة الإسلامية وأتباعها، باستثناء بورشارد الذي فصّل قليلاً في الحديث عن الدين الإسلاميّ، فخرج عن نهج سابقيه من الرحالة الذين زاروا الأراضي المقدسة في العصور الوسطى.

لقد وسموا المسلمين بالوثنية والكفر والإلحاد، وهي نعوت ضرورية في الحملة الترويجية للحروب الصليبية، ذلك أن سلب صفة الإيمان عن المسلمين تعطي الشرعية لتلك الحروب، وتعطي صورة عن طبيعة الصراع بين الجانبين، وتشجع الأوروبيين على

[1] – المصدر نفسه، ص 171 .

الانخراط فيها لتخليص أماكن المسيحيين المقدسة من قوم لا يؤمنون بالله، ولا يعترفون بآلام المسيح، وبخاصة وأن هؤلاء الرحالة حاولوا إقناع الغربيين أنّهم رأوا هذه الصفات عن قرب ومعايشة. فالمسلمون في نظر سايلوف وثنيون يكنون العداء للمسيحيين، ولكلّ من يعبد الله، وجاء ذلك في معرض إشارته إلى سكّان الجزيرة العربية التي لم يزرها، يقول: " وهي بلاد تتسم بالعداء للمسيحيين، ولا تتسم بالود لكلّ من يعبد الله "[1]. ويشايعه في هذا الوصف يوحنا فورزبورغ إذ تحدث عن قبة الصخرة، وعن إجلال المسلمين لها، وأنهم يعبدون خالقهم هناك، ولكنّهم لا يؤمنون بآلام المسيح، ولا يصدّقون ما جرى له من صلب وعذاب، وهذا " يُعتبر وثنية حسب نصّ القدّيس أوغسطين، الذي أوضح أنّ كلّ شيء يُعتبر وثنياً إذا كان خارجاً عن الإيمان المسيحيّ "[2].

ويسم دانيال الراهب المسلمين بالوثنية، وبالكفر في غير موضع من رحلته، وتكررت كلمة الكفار في رحلته ما يزيد على عشر مرات، وجاءت مقترنة بحديثه عن همجية المسلمين، واعتداءاتهم على المسيحيين والأماكن الدينية المسيحية في الأراضي المقدسة في القدس[3]. وعزا مترجما الرحلة سبب هذا الموقف من الرحالة إلى " تلقيه الرشوة من الصليبيين، أو بسبب تعرّضه لضغط قادتهم، الذين ربّما أجبروه على كتابة العبارات المشينة بحقّهم "[4]. قد يكون هذا التعليل منطقيّاً، ولكنّ دانيال لا يحتاج إلى ضغط أو رشوة ليقول ما يقول، فهذا نهج نهجه معظم الرحالة الأوروبيين الذين زاروا المنطقة في العصور الوسطى، الذين جاءوا إلى المنطقة متحاملين على سكّانها المسلمين، ومبتهجين بخلاصها منهم على حدّ تعبيرهم. أمّا ثيودوريش، فنهج نهج سابقيه إذ وصف المسلمين بأنهم وثنيون وكفار في غير موضع من رحلته، ليؤكّد معاداتهم المسيحية وكلّ مَنْ يؤمن بها، وهو يؤكد من جهة أخرى الطابع الديني لرحلته، ويتجلّى ذلك كلّه في حديثه عن إحدى كنائس القدس،

---

[1] – وصف رحلة الحاج سايلوف، ص41 .

[2] – فورزبورغ، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ص114، تجدر الإشارة إلى أنّ الرحالة نعت المسلمين بالوثنيين، ولكنّ مترجم الرحلة أثبت مكان هذا اللقب لفظة المسلمين، وأشار في الحاشية إلى لفظة الوثنيين .

[3] – سترد هذه الأمثلة في الحديث عن همجية المسلمين في هذه الرحلات .

[4] – مقدمة الرحلة، ص20 .

وعن الصليب المقدس الذي كان يحمله الصليبيون في حروبهم ضد الوثنيين على حدّ تعبيره: " وباتجاه الشرق توجد كنيسة صغيرة ذات قدسية خاصة، خصص مذبح عظيم القدسية للصليب المقدس، وقد حفظتْ قطعة كبيرة من الخشب نفسه في علبة جميلة بحيث يمكن رؤيتها بسهولة ووضوح، وهذه القطعة مغطاة بالذهب والفضة والجواهر، **وعندما تتطلب الحاجة يحمل المسيحيون هذا الرمز المقدس ضد الوثنيين في المعركة** "[1]. وبرزت سمة الوثنية في قوله متحدثاً عن كنيسة القديسة مريم في جبل صهيون: " وهي محصنة جيداً بالأسوار والأبراج والشرفات ذات الفتحات ضد هجمات **الوثنيين** "[2]. وبدت لفظة الكفار في قوله يصف كنيسة السيد المسيح أو الصعود على جبل الزيتون في القدس: " والكنيسة محصنة بقوة ضد **الكفار** "[3].

وبرز العداء الديني للمسلمين " أنّه ذكر في إحدى رواياته أنّ العناية الإلهية تدخلت لجوار المسيحيين ضد المسلمين "[4]. ومن الأدلة في الرحلة التي تؤكد إضفاء الصبغة الدينية على الحروب الصليبية " حديثه عن مدينة عكا، وكيف أنّ كلّ من يحاول من الوثنيين " المسلمين" مهاجمتها فإنّهم يصابون بالعمى والطاعون "[5]. ويستكمل ثيودوريش هذه الصورة للمسلمين إذ وصفهم همجيين ودمويين يعتدون بالقتل والنفي[6] على رجال الدين المسيحيين في كنائسهم، ويبدو ذلك في حديثه عن عماد الدين زنكي: " وشيّدت على ضفة نهر الأردن كنيسة قطن فيها ستة رهبان حيث تمّ قطع رؤوسهم من قبل زنكي "[7]. وتحدّث الرحالة بورشارد عن ديانة المسلمين وأفكارهم ومعتقداتهم، وقدّم معلومات أكثرها صحيحة، وبعضها خاطئة، لا تنم عن فهم عميق للإسلام ، والقرآن الكريم الذي ذكر أنّه قرأه، واطّلع عليه، من هذه المعلومات الخاطئة قوله عن المسلمين: " ويقولون: إنّ محمداً هو رسول الله بعثه الله إليهم " العرب " فقط، وقد قرأتُ هذا كلّه في قرآنهم، الذي يُعتبر

---

[1] – ثيودوريش، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ص70 .

[2] – المصدر نفسه، ص95 . وانظر ص59، 78، 95، 98 .

[3] – المصدر نفسه، ص103 .

[4] – الدراسة التحليلية، ص28 .

[5] – المرجع نفسه، ص26 .

[6] – انظر ثيودوريش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ص134 .

[7] – المصدر نفسه، ص109 .

كتابهم المقدّس ومصدر شريعتهم "[1]. فهذا القول يتنافى مع عالمية الإسلام التي أقرها القرآن الكريم ذاته. ويبيّن الرحالة أن الإسلام يبيح للمسلمين " تعدد الزوجات "[2]، ويحرّم عليهم شرب الخمر، وأنّ أغلبهم يلتزمون حرمته " باستثناء البعض الذي يشربه سرّاً "[3].

ونقل بورشارد في رحلته موقف المسلمين والدين الإسلاميّ من رموز الديانة المسيحية، وكان دقيقاً في عرض هذه الرؤية، فهم يقدّمون " الاحترام والتبجيل الكبير للقديس يوحنا " يحيى "، وبعد ذلك للسيد المسيح والعذراء المبجّلة، ويعتقدون فضلاً كبيراً له، وهم بصدق يقرّون أنّ المسيح هو كلمة الله، ولكنّهم يقولون: إنّه ليس الله. ويقولون: إنّ العذراء قد تسلّمت الروح المقدّسة، وقد حملت به وهي عذراء، وبقيتْ عذراء. ويقولون: إنّ يوحنا كان نبيّاً عظيماً مقدّساً "[4]. والمسلمون في نظره يحترمون الأماكن الدينية المسيحية، وبخاصة كنيسة المهد في بيت لحم، وغيرها من الكنائس " التي أُقيمتْ على شرف مريم العذراء "[5]. ويقدّسون قبر العازر الواقع في بيثاني " العيزرية "، وهو المكان الذي نهض منه، وحدثت فيه معجزة الانبعاث[6]. إنّ خروج بورشارد عن نمطية سابقيه في حديثه عن عقيدة المسلمين ليس نابعاً من موضوعيته حسب، وإنّما تدخلت المرحلة وتغيراتها في ذلك، فإقامته في الأماكن المقدسة في فلسطين كانت عقب تحرير صلاح الدين القدس بسنوات كثيرة، وتحديداً في العصر المملوكي، فهي خاضعة يومذاك لسلطة المسلمين، وأتاحت له السنوات العشر التي أقامها في فلسطين أن يحتك بالمسلمين، وأن يتعرف إليهم عن قرب، ولهذا خرج عن الصورة النمطية في تصويرهم.

نعوت المسلمين وصفاتهم وأخلاقهم

لقد كثر الحديث عن أخلاق المسلمين وصفاتهم في الرحلات الأوروبية والروسية في العصور الوسطى، وهو في معظمه حديث سلبي، وصور مزرية لأمّة وثنية كافرة، تكنّ

---

[1] – بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص104 .

[2] – المصدر نفسه، ص172 .

[3] – المصدر نفسه، ص170 .

[4] – المصدر نفسه، ص104 .

[5] – المصدر نفسه، ص154 .

[6] – المصدر نفسه، ص124–125 .

العداء للمسيحيين، ولكلّ من يؤمن بالله، وتأتي هذه الصور في إطار حملة الدعاية الصليبية، ولتثبيت النمطية المغروسة في أذهان الأوروبيين عن المسلمين. لقد وصف الرحالةُ الغربيون المسلمين، ونعتوهم بأنهم:

1- **سراقنة، أو السارازان Saracens**، وهو لقب وسَم به أولئك الرحالة المسلمين في العصور الوسطى بقصد إهانتهم وتحقيرهم. وقد حاول الدكتور إحسان عباس في كتابه " تاريخ بلاد الشام " أن يقف على التفسيرات المختلفة لهذه اللفظة، فبيّن أنّ أول ورود لهذه اللفظة كان عند المسعودي في " كتاب التنبيه والأشراف " في حديثه عن نقفور إذ قال: " وأنكر، أي نقفور، على الروم تسميتهم العرب ساراقينوس، تفسير ذلك عبيد سارة طعناً منهم على هاجر وابنها إسماعيل ". وحصر د.إحسان عباس التفسيرات المختلفة لهذه اللفظة، فبيّن أنّ مدلولها اتّسع في عصر الحروب الصليبية، وأرجعها بعض الباحثين إلى قبيلة السوارقة " السواركة " التي تسكن اليوم على الساحل بين غزة والفرما. ويرى بعضهم أنّها مشتقة من الفعل سرقَ صفة للبدو الذين كانوا يعيشون على عمليات السلب والنهب. وذهب فريق ثالث إلى أنّها مشتقة من لفظة شرق وتعني الجهة. وقد علّق د. سعيد البيشاوي على هذه الآراء قائلاً: " ومع اعترافي وإقراري بجميع الآراء التي أتى الأستاذ إحسان عباس على ذكرها إلاّ أنّني أعتقد أنّ لفظة السراقنة عند الغربيين كان المقصود منها مهاجمة المسلمين الذين فتحوا بلاداً كثيرة، ونشروا فيها الإسلام "[1]. ولعل سايلوف هو أكثر رحالة أوروبيّ استخدم لفظة السارازان أو السراقنة في رحلته[2]. وورد هذا اللقب في رحلة فيتلوس[3]، وثيودوريش[4]، وبورشارد[5]، ورحلة يوحنا فورزبورغ إذ تحدث عن نهر دان في سفح جبل لبنان: " ويتدفق دان من مصدره....، ونظراً لوقوع دان في وسط ميدان دعي

[1] – فورزبورغ، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ص51، حاشية 1 .

[2] – انظر الرحالة الأوروبيون، ص51، وكتابات بعض الرحالة الأوروبيين، ص201 .

[3] – انظر فيتلوس، وصف الأرض المقدسة، 54 .

[4] – انظر ثيودوريش، وصف الأراضي المقدسة، ص109 .

[5] – انظر بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص 81، 170، 171 .

السهل باسم لغة السراقنة "[1].

2- **مغتصبون:** يؤمن المسيحيون بأن الأراضي المقدسة في فلسطين والأردن ولبنان من حقّ المسيحيين المؤمنين، لأنّها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتاريخ المسيح: ميلاده، وآلامه، وصلبه، ثمّ رفعه إلى السماء، وأنّ المسلمين اغتصبوها اغتصاباً، ولا حقّ لهم بها. ومن هنا يجب على المسيحيين استردادها، وإعادة الحقّ إلى نصابه، وقد ركّز الرحالة على هذه الصورة للمسلمين، لبث العزائم، وحثّ الأوروبيين على تخليصها منهم، واقترنت هذه الصفة بحديث الرحالة عن وثنية المسلمين وكفرهم، فهذا يوحنا فورزبورغ يعبّر عن وجهة نظر أبناء ملّته حين صوّر المسلمين مغتصبين لبيت المقدس، وأن ما فعله الصليبيون في الحملة الصليبية الأولى سنة492هـ-1097م كان تحريراً للمدينة المقدسة من سلطة المسلمين وإعادة إلى حضنها الدافئ، أي الحضن المسيحيّ، يقول مشيراً إلى احتفالاتهم السنوية بهذه المناسبة: " عندما وقعتْ المدينة في الأسر لفترة طويلة تحت حكم المسلمين الذين ينتمون لأجناس مختلفة، فإنّ المدينة حرّرتْ من قبل الجيش المسيحيّ إحياء لذكرى أقرّوها، وهم يحتفلون بذلك بعد تجديد تكرّس الكاهن بطقوس دينية مبجّلة، وذلك بالغناء في بداية صلاة القدّاس، والقدّاس العلى للتكريس "[2]. وتتجلى هذه النظرة للمسلمين من التراتيل التي تُقال في هذه الذكرى، وقد حضر الرحالة إحدى هذه التراتيل في الذكرى السنوية. وهم فيها يحمدون الله على هذا التحرير، ومنها: " الله القادر الأبديّ الذي أنقذ بيت المقدس برحمته الفائقة من أيدي **الوثنيين**[3]، وأعادها للمسيحيين، نتوسل ونتضرّع إليكَ، وتساعدنا، حيث تحفظ هذا اليوم في كلّ سنة، وقد يكون مستحقّاً تحقيق السعادة لبيت المقدس المقدسة بواسطة المسيح عليه السلام "[4]. ومنها: " أيها السيد نحن نتوسّل إليك، تقبّل هذا القربان الذي أحضرناه بتواضع..، ومُنح بقوّة صوفية، نحن الذين نحتفظ

---

[1] – فورزبورغ، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ص107، وانظر ص83 .

[2] – فورزبورغ، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ص71 .

[3] – تجدر الإشارة إلى أنّ الرحالة أطلق على المسلمين اسم الوثنيين، ولكنّ المترجم أثبت مكانه لفظة المسلمين، وأشار في الحاشية إلى لفظة الوثنيين .

[4] – سايلوف، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ص114 .

بقداسة هذا اليوم حيث أنقذت بيت المقدس من أيدي **الوثنيين**"[1]. ودفعت النظرة الدينية الحاقدة ثيودوريش إلى وصف المسلمين باغتصاب الأراضي المقدسة إذ وصف استعادة الصليبيين لها في حروبهم المقدسة، كما يبدو في حديثه عن ضريح جودفري الذي قاد حملة احتلال بيت المقدس: " وخلف هذا يقع الضريح الثالث، وهو يعود لشقيق الملك جودفري نفسه الذي بوساطة سيفه وحكمته استعاد مدينة بيت المقدس، التي تمّ اجتياحها من قبل المسلمين والأتراك، وقد أعادها للمسيحية"[2]. وأشار الرحالة إلى هذه الصفة حين تحدّث عن استرداد المسيحيين بانياس من المسلمين سنة 1161م[3].

3- **أعداء وهمجيون وغادرون:** صور الرحالة الروس والأوروبيون المسلمين أعداء للمسيحيين، ووسموهم بالهمجية، والغدر، والاعتداء على الحجاج المسيحيين، وهي نتيجة طبيعية لقوم كفرة مغتصبين، وتأتي في إطار الترويج للحروب الصليبية، وإذكاء نار العداء التي حمل رجال الدين من هؤلاء الرحالة وغيرهم على عاتقهم إيقادها. وقد عبّروا عن ذلك العداء وتلك الهمجية في غير صورة، وهي الآتي:

أ- لقد صوروا المسلمين أعداء للحضارة والمدنية، تتملكهم رغبة جامحة في التدمير والتخريب، وبخاصة تدمير الأماكن الدينية المتعلقة بالمسيحيين، وورد هذا في سياق حديثهم عن المدن التي زاروها والأماكن المقدسة فيها، ومنهم سايلوف الذي زار بيت لحم والخليل والناصرة، فوجدها مدمرة، فاتهم المسلمين بتدميرها، يقول: مدينة الخليل كانت " عظيمة وجميلة، ولكنّها مدمّرة الآن من قبل المسلمين "[4]. وقال: " وقد دمّر المسلمون الناصرة "[5]. وقال عن بيت لحم: " ولم يترك المسلمون شيئاً يمكن السّكن به، ولكنّهم دمّروا كلَّ شيء كما حدث في جميع الأماكن المقدّسة الأخرى خارج

---

[1] – المصدر نفسه، ص114-115 .

[2] –ثيودوريش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ص73 .

[3] – المصدر نفسه، ص134 .

[4] – رحلة الحاج سايلوف، ص42 .

[5] – المصدر نفسه، 43 .

أسوار مدينة بيت المقدس "[1]. ويرى نؤنس عوض أنّ حديث الرحالة هذا هو من قبيل التعصّب الديني والعنصريّ، ذلك أنّه لا يوجد دليل واضح على " حدوث الخراب بالمدن المذكورة، أو إرجاع ما حلّ بها من صنوف الدمار على عاتق المسلمين "[2]. واقترن حديثهم عن التدمير بنعت المسلمين بالكفر والوثنية، كما يبدو في الصورة التي رسمها دانيال الراهب للمسلمين واعتداءاتهم على الأماكن الدينية المسيحية في الأراضي المقدسة في القدس، وبيت لحم، وسيجور عند أريحا، وعمواس، وغيرها من الأماكن. ومن الأمثلة على ذلك قوله:

1- ففي القدس حيث حاول اليهود إلقاء جثّة العذراء المقدّسة من النعش كان هناك دير في هذا المكان، ولكنّ **الكفّار** دمّروه "[3].

2- وفي بيت لحم قرب بئر داود كان" هناك كهف يعلوه كنيسة جميلة سمّيت نسبة إلى يوسف، وكان على جانبها دير جميل، وقد دمّرتا من قبل الكفّار "[4].

3- لقد كانت عمواس بلدة كبيرة، وقد بنيتْ كنيسة كبيرة هناك، ولكنّها هدمتْ من قبل الكفّار "[5].

ب- صور الرحالةُ الأوروبيون المسلمين همجيين في سياق حديثهم عن المقاومة الشعبية للوجود الصليبيّ في فلسطين، وغيرها من الأماكن المقدسة، ولم يكن هدفهم من ذلك إبراز حركات المقاومة، لأنّها في نظرهم غير شرعية، وإنما هي اعتداء على الحجاج المؤمنين، أصحاب الأرض الحقيقيين، وكان هدفهم من ذلك كلّه تشويه صورة المسلمين، وبيان المخاطر التي كان يتعرض لها مَنْ نذروا حياتهم لخدمة الأراضي المقدسة، ثمّ زيادة الحقد المسيحي على هذه الأمّة. ولا معنى غير هذا من إبراز الوجه البشع للمسلمين، وإخفاء المجازر التي كان يتعرّض لها المسلمون جراء

---

[1] – المصدر نفسه، 38 .

[2] – محمد عوض، الرحالة الأوروبيون، ص45 .

[3] – رحلة دانيال الراهب، ص64 .

[4] – المصدر نفسه، ص88 .

[5] – المصدر نفسه، 100 . وانظر ص80، 84، 95، 119 .

الغزو الصليبي، والهمجية الصليبية في فلسطين.

لقد ركزوا على القتل الذي كان يتعرض له الحجاج المسيحيون، والخوف الذي كان يعتري نفوسهم من أولئك المقاومين، وجاءت كلماتهم ممزوجة بالعاطفة الجياشة التي تسعى إلى الشفقة عليهم، وتصويرهم بأنّهم الضحية، المُعتدى عليها[1]. ولا بأس هنا من إيراد بعض الأمثلة من رحلة فيتلوس الذي عرض الصورة التي قتل بها طغتكينُ أميرُ دمشق القائدَ الصليبي جرفاس بوسوك بعد أن وقع أسيراً في يده، فقد وصفه بأنّه " الأمير الثالث للجليل ابتداء من أسرة تانكرد "، و " يتحدر من عائلة نبيلة من الفرنج "[2]. فقد انساق، كما يقول فيتلوس، طغتكين " وراء شهوات نفسه، وشرب حتى الثمالة، ثمّ قام بقطع رأسه، وبذلك قدّمه شهيداً من أجل الرب، وفي اليوم التالي حيث سكنتْ نفسه، كان ممتلئاً بالعار والغيظ، لأنّه قتل رجلاً بجنون، ودفنه بدون رأس، حيث احتفظ به، وزيّنه بالذهب والأحجار الكريمة، وأبقاه تحفة لكي يشرب بها "[3]. ولا يخفى على القارئ أنّ هذه الصورة تسعى إلى إثارة العواطف، ونبش الأحقاد، بكل ما فيها من انفعالات عاطفية، ثمّ إلى تقديم صورة وحشية عن هذا القائد الإسلامي، الذي كان يمثّل المسلمين في الشام في عهده. وقد علّق مترجما الرحلة على هذه الصورة بالقول: " الرواية التي يسوقها فيتلوس هنا تتسم بالحقد، وعدم الموضوعية، والذي حدث أن جرفاس قد خرج بقواته في الثامن والعشرين من رمضان– العاشر من حزيران 1108م لصدّ غارة إسلامية على طبرية، وقد تمكّنت القوات الإسلامية من اقتياده أسيراً إلى دمشق، وهناك عرض عليه طُغتكين الإسلام، فرفض ذلك، ثمّ أرسل برسالة إلى ملك القدس، عارضاً عليه الانسحاب من مدن طبرية وحيفا وعكا مقابل إطلاق سراحه، لكنه رفض العرض فقام طغتكين بإعدامه "[4]. " صحيح أنّ هذا الحادث وقع قبل قدوم فيتلوس إلى فلسطين، ولكنّ إيراده له يدلل على تناقل الناس قصة مصرعه حتى مقدم فيتلوس "[5]، ويدّلل على أنّهم كانوا يعدّونه بطلاً قومياً

---

[1] – سيأتي تفصيل ذلك تحت عنوان العلاقات الحربية بين المسلمين والصليبيين .

[2] – محمد عوض، الرحالة الأوروبيون،ص106 .

[3] – فيتلوس، وصف الأرض المقدسة، ص55 .

[4] – فيتلوس، وصف الأرض المقدسة، ص136، حاشية 309 .

[5] – مقدمة الترجمة العربية، ص14 .

ضحّى بنفسه من أجل الهدف الذي قامت من أجله الحروب الصليبية، وهو السيطرة على الأراضي المقدسة، وديمومة هذه السيطرة[1].

وحذا ثيودوريش في رحلته حذو غيره إذ حاول أن يسقط أحقية المسلمين في المقاومة، إذ نعتهم بالمعتدين الذين احتلوا أماكن ليست من حقّهم في الأراضي المقدسة، وأن يسبغ سمة الدموية على قادة المسلمين الذين وقفوا يواجهون الصليبيين، وينتصرون عليهم أمثال عماد الدين زنكي، وراح يختار من أفعاله ما يعزّز هذه الصفة في أذهان الأوروبيين، ويعزز سمة الهمجية، والاعتداء على أولياء الله من الرهبان المسيحيين، كما يبدو في قوله: " وشيّدتْ على ضفة نهر الأردن كنيسة قطن فيها ستة رهبان حيث تمّ قطع رؤوسهم من قبل زنكي "[2].

وبرزت همجية المسلمين في رحلة بورشارد، الذي صورهم معتدين قتلة للحجاج المسيحيين، ينصبون لهم الكمائن ويذبحونهم، وقد عبّر عن ذلك خلال حديثه عن الحجر الكبير الذي وقف عليه السيد المسيح عليه السلام قرب مدينة صور اللبنانية: " وفي ذلك المكان أيضاً يوجد عمود ساقط أو مدمّر، ويُقال: إنّه يُحدّد معالم الموقع حيث كان بعض الحجاج المسيحيين يُذبحون على نحو غادر من قبل المسلمين عند زيارتهم لذلك الموقع "[3]. ويصفهم يعترضون الحجاج المسيحيين في بعض الأماكن، ويمنعونهم من الوصول بأمان، وتجلّى ذلك في حديثه عن ممر الكلب الواقع شمال بيروت: " ويُعرف هذا المكان باسم ممرّ الكلب، ولا يمكن المرور منه بسلام بسبب وجود بعض الرجال من المسلمين الذين بإمكانهم منع كلّ الناس من المرور من هناك "[4].

ويصوّر بورشارد المسلمين وقد كانوا **يعتدون على أملاك المسيحيين**، إذ حوّلوا إحدى الكنيستين اللتين بُنيتا تكريماً ليوحنا المعمدان " يحيى عليه السلام " إلى جامع[5]. ولكنّ العناية الإلهية كانت تدافع عن هذه الأماكن، ويسرد للتدليل على ما يقول محاولة أحد

---

[1] – انظر الرحالة الأوروبيون، ص107 .

[2] – ثيودوريش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ص109 .

[3] – بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص46 .

[4] – المصدر نفسه، ص50 .

[5] – المصدر نفسه، 104 .

سلاطين المماليك[1] خلع زخارف كنيسة المهد في بيت لحم وأعمدتها ولوحاتها، ونقلها إلى القاهرة " راغباً بتشييد قصر خاص به شخصياً، وذلك باستخدام هذه الأشياء في البناء، ويا للمعجزة ! فعندما حضر العمّال مع أدواتهم، وكان السلطان نفسه واقفاً مع الآخرين، حضر ثعبان بحجم مذهل خارجاً من الجدار الصلب العازل للصوت، والذي بدا وكأنّه لا يُمكن حتى لإبرة أن تخترقه، وقد خصص الثعبان ضربة للوحة الأولى التي وصل إليها، وقد انشقّت اللوحة من جانبها.وقد فعل الثعبان نفس الشيء مع اللوحة الثانية، والثالثة والرابعة وحتى الثالثة عشرة، ونفس الشيء أصاب الجميع، وقد ذهل الجميع من جراء ذلك. أمّا السلطان، فقد تخلّى مباشرة عن هدفه، وتلاشى الثعبان عند ذلك...، ويمكن رؤية بعض آثار جسم الثعبان على كلّ لوحة مرّ عليها، على الرغم أنّه جرى إحراق هذه اللوحات بالنار. وفوق هذا كلّه يبدو من خلال المعجزة أنّ الثعبان كان سيتمكّن من المرور على طول الجدار الذي يُعتبر ناعماً ومصقولاً كالزجاج "[2].

4- الكذب: وتجلّت هذه الصفة في رحلة بورشارد إذ بيّن أن بعض المسلمين كانوا **يكذبون عليه، ويزوّرون الحقائق،** وذلك حين أراد أن يزور بلدة سيجور على سفح جبل عين جدي في الجنوب الغربي من أريحا، حيث " يقع عمود الملح الذي تحوّلت إليه زوجة لوط عندما تلفتت وراءها "، ويتابع الرحالة: " وقد جاهدتُ بصعوبة من أجل رؤية هذا، ولكن السراقنة أخبروني أنّ المكان كان غير آمن حيث تكثر الحيوانات البرية والأفاعي والديدان المتواجدة هناك، وخصوصاً بسبب البدو المقيمين في تلك الأجزاء وهم رجال وقحون أشرار، وقد منعتني هذه الادّعاءات من الذهاب إلى هناك، ولكني علمتُ فيما بعد أنّ ذلك ليس صحيحاً "[3].

لم يحظ المسلمون في هذه الرحلات بسمة إيجابية إلاّ في رحلة بورشارد، الذي اختلط بهم وعايشهم، فخرج قليلاً عن الصورة النمطية، ولكنها مع ذلك إيجابية باهتة اختزلها

---

[1] – يرجح سعيد البيشاوي أن يكون المنصور سيف الدين قلاوون الألفي . وصف الأرض المقدسة، ص154، حاشية 3 .

[2] – بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص155 .

[3] – بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص117 .

بقوله: "وهم مضيافون جداً وكرماء ولطفاء ممتازون"[1].

العلاقات السياسية والحربية بين المسلمين والصليبيين

وقف الرحالة كثيراً على العلاقات العدائية بين المسلمين والصليبيين، فتحدثوا عن بعض العمليات العدائية التي كان يقوم بها الصليبيون ضد المدن الإسلامية في الشام، ووصفوا جانباً من جهاد المسلمين، وفصّلوا كثيراً في الحديث عن المقاومة الشعبية، وجاء ذلك في سياق تشويه صورة المسلمين، وتصويرهم همجيين، يعتدون على أولياء الله من الحجاج المسيحيين، وفي سياق رسم خريطة للحجاج الأوروبيين للأماكن الخطرة في الأماكن المقدسة التي عليهم تجنبها في رحلتهم إلى هناك. ويمكن تفصيل ذلك في النقاط الآتية:

1- صور الرحالة الأوروبيون والروس في العصور الوسطى بعض الحملات العسكرية الصليبية على المدن الإسلامية، فدانيال الراهب أشار إلى بعض الغزوات التي تعرّضت لها مدينة دمشق في أوائل القرن السادس الهجري حين قصدها بلدوين الصليبيّ ملك القدس وحاصرها، وقد طلب إليه الرحالة أن ينضمّ إلى جيشه لا للغزو، وإنّما ليكون تحت حمايته حتى يصل إلى الأماكن المقدسة في الجليل وطبرية وجبل طابور غربيها، إذ لا يستطيع المرء " عبورها دون حماية "[2]، يقول دانيال:" عبر الأمير بلدوين فوق نهر الأردن مع جيشه، وزحف باتجاه دمشق، بينما ذهبنا نحن إلى مدينة طبرية، حيث بقينا هناك مدة عشرة أيام حتى عودة الأمير من حملته على دمشق، وقمنا في أثناء هذه المدة بزيارة جميع الأماكن المقدسة الواقعة على شاطئ بحيرة طبرية "[3].

ورسم فيتلوس صورة لمهابة الصليبيين، وقوّة بأسهم،وللخوف الذي كان يتملّك المسلمين منهم، إذ كانوا يدفعون لهم إتاوة حفاظاً على أرضهم وأرواحهم، وتجلّى ذلك حين تحدّث عن بلدوين ملك القدس، الذي توّج عقب أخيه جودفري سنة 1100م، وكان أحد المشاركين في الحملة الصليبية الأولى التي توّجت بسقوط القدس. يقول: "وقد خلفه أخوه

---

[1] – المصدر نفسه، ص173 .

[2] – رحلة دانيال الراهب، ص106 .

[3] – المصدر نفسه، ص113 .

بلدوين الذي كان أوّل حاكم على الرها، وكان قد اختير من قبل معظم رجال الدين والشعب المسيحيّ.....، **في الوقت نفسه ارتعد العرب والفلسطينيون خوفاً، وكانت دمشق وصور وعسقلان تدفع ضريبة إتاوة**"[1]. وهذه المعلومات أيضاً إذ صورت طرفاً من العلاقات السياسية بين المسلمين والصليبيين، هدفت في الوقت ذاته إلى إعطاء الثقة بالصليبيين، وبيان مكانتهم التي صاروا عليها في الأراضي المقدسة، ليأتي أولئك الأوروبيون باطمئنان إليها.

2- تحدثوا عن جهاد المسلمين ضد الصليبيين في الشام في العصور: الفاطمية، والسلجوقية، والزنكية، والمملوكية، ووصفوا وسائل المسلمين في مقارعة الصليبيين، فالرحالة سايلوف وقف عند الجهود التي بذلتها الدولة الفاطمية "من أجل حماية المدن الساحلية الفلسطينية التي ما زالت بيد المسلمين، ويتّضح ذلك من خلال إشارته للنشاط البحري الفاطميّ والاشتباكات البحرية بين الفاطميين والفرنجة "[2]. وقد أثارت هذه الإمكانات البحرية وذاك النشاط الخوف والفزع في نفوس الصليبيين، وسايلوف منهم، الذين كانوا يعبرون البحر الأدرياتيكيّ، ممّا كان يمنعهم من التوغل في ذلك البحر بعد أن زاروا الأراضي المقدّسة، ثمّ قفلوا راجعين إلى بلادهم، يقول معبراً عن ذلك: " وبعد أن قمنا بزيارة جميع الأماكن المحرّمة في مدينة بيت المقدس وحتى حدودها...ذهبنا بعد ذلك على متن سفينة من يافا عائدين إلى الوطن...ولكن خوفنا من المسلمين لم يجعلنا نخاطر في الدخول إلى عمق البحر الأدرياتيكي لأنّنا كنّا خائفين من أسطولهم "[3]. ويتحدّث في موضع آخر عن قوّة الأسطول الإسلاميّ الفاطميّ المنتشر في البحر، وعن كثرة عدد الأساطيل، وخشية الفرنجة منها، ولكنّه هنا يبالغ، كما يقول مترجم الرحلة سعيد البيشاويّ " عندما ذكر أنّ سفينته تصدّتْ لمجموعة السفن الفاطمية التي أمر قائدها المسلم جنوده بالانسحاب عندما شاهد استعداد بحارة السفينة الأوروبيين للقتال من خلال إمكانات بحرية كبيرة "[4]. ولكن لا عجب في هذه المبالغة، فهو يريد أن ينفي أي بعد إنساني أو تسامح

---

[1] – فيتلوس، وصف الأرض المقدسة، ص79 .

[2] – مقدمة الرحلة، ص6 . وانظر محمد عوض، الرحالة الأوروبيون، ص47 .

[3] – وصف رحلة الحاج سايلوف، ص46 .

[4] – مقدمة رحلة سايلوف، ص6 .

دينيّ عن المسلمين الذين سمحوا لهذه السفينة بالمرور، وإلاّ فليس من المعقول أن تفرّ ستٌّ وعشرون سفينة من وجه سفينة واحدة، يقول: " وفي يوم الأربعاء... وبينما كنّا نبحر بين حيفا وعكّا شاهدنا ستاً وعشرين سفينة للمسلمين ظاهرة للعيان، وكانت تابعة لأدميرال مدن صور وصيدا، وكانت هذه السفن تتجه إلى بابلونيا مع جيش، وذلك لمساعدة الكلدانيين في شنّ حرب على ملك بيت المقدس.وتركتنا سفينتان جاءتا معنا من يافا، وكانتا محمّلتين بالحجّاج، وبقيت سفينتنا وحدها، وهربت السفينتان إلى قيسارية، وأبحرت سفن المسلمين حتى أحاطونا مهيّئين أنفسهم على مثل هذا الصيد، وكان رجالنا مستعدين للموت في سبيل المسيح، وقبضوا على أسلحتهم، وبقدر ما سمح لنا الوقت قمنا بتحصين برج السفينة بالرجال المسلّحين. حيث أنه كان على مركبنا مائتا رجل قادرون على الدفاع عنها، ولكن بعد تأخير ساعة تقريباً قام رئيس الأعداء بعقد مجلس الحرب، وأعطى الأمر لأحد بحارته بالصعود إلى أعلى صارية في السفينة ليراقب من هناك ما كان يجري، وما كنّا نفعل على سفينتنا، وعندما عرف من البحار عن قوّة استعدادنا، أعطى أوامره بالإبحار متّجهاً داخل البحر. وهكذا سلّمَنا الله بفضل منه ورحمة، وأنجانا من أعدائنا في ذلك اليوم، ولكنّ رجالنا استطاعوا بعد ذلك أسر ثلاثة من تلك السفن في يافا، وأثروا أنفسهم من تلك الغنائم "[1]. ويبدو أنّ هذه السفن الثلاث الأخيرة كانت صغيرة، ولولا ذلك لما استطاعوا أسرها إن كانوا قد أسروها فعلاً، لأنّ الأمر ربما لا يعدو عن كونه نقل رسالة إلى أبناء أوروبا تخبرهم بضعف المسلمين وجبنهم، فوصف القوّة الحقيقية للمسلمين قد تدفع الأوروبيين إلى الإحجام عن المجيء إلى الأراضي المقدّسة، والمشاركة في الحملات الصليبية، وهذا ما يتناقض مع هدف هذه الحملات، وهدف الرحالة الذين روّجوا لها في رحلاتهم بوسائل مختلفة.

وكشف يوحنا فورزبورغ في رحلته عن بعض وسائل المسلمين في تخليص بلادهم من الغزو الصليبيّ، وحصاره مدنهم وقلاعهم، فقد كانوا يرشون الصليبيين لقاء فكّ الحصار عنهم، وهذا ما فعلوه مع فرسان الداوية الذي كانوا يحاصرون دمشق سنة 1148م، وهو ما يتجلى في حديثه عن سمعة أولئك الفرسان التي تضرّرت في بلادهم جراء ذلك، يقول في معرض حديثه عن الداوية: "...، لكنهم عانوا محنة، وتعرّضتْ

[1]– وصف رحلة الحاج سايلوف، ص48 .

سمعتهم للوم والخيانة، ولا أعرف إذا كانت التهمة حقيقة أم كاذبة."[1].

أمّا بورشارد، فتحدث عن بعض البلدان والقلاع والحصون التي كانت بحوزة فرسان الصليبيين وبخاصة فرسان التيوتون والداوية واستردها المسلمون منهم، مثل حصن الملك شرقي مدينة عكا، وصفد وقلعتها، التي فتحها السلطان الظاهر بيبرس، ثمّ قلعة الكرك[2]. وبيّن بورشارد مكانة تلك القلاع عند المسلمين، كما يبدو في حديثه عن قلعة الكرك: " وهي قلعة رائعة محصّنة.....، ولكنها الآن بأيدي السلطان[3]، ويقبع هناك كلّ خزائن مصر وكنوزها "[4]. وبيّن الرحالة أثر سقوط صفد وقلعتها في هيبة بيبرس، ثم في تراجع السيطرة الصليبية، فقال: " وقد استولى عليها المسلمون بسهولة، الأمر الذي سبّب حرجاً لجميع المسيحيين، لأنّ سيطرة السلطان عليها، مكّنته من السيطرة على جميع الجليل "[5].

وصور أولئك الرحالة بعض ما تعرض له قادة الصليبيين، ورهبانهم الذين قادوا الحروب الصليبية من قتل على أيدي حكام المسلمين، وقد أشار البحث آنفاً إلى طغتكين، وما فعله بجرفاس القائد الصليبي[6]، وإلى زنكي وقتله الرهبان الستة في ديرهم[7].

3- **المقاومة الشعبية:** إن المقاومة الشعبية في فلسطين ولبنان للوجود الصليبيّ موضوع حيوي ومهم في هذه الرحلات، فلا يكاد رحالة منهم إلاّ وتحدّث عن هذه المقاومة، وطرقها، وعن أماكن انتشارها، وعن النتائج التي حققتها، ثمّ عن آثارها في الصليبيين ونفسياتهم. وقد آثرت في هذا المقام أن أتناول ما تضمنته كلّ رحلة على حدة لخصوصية كلّ منها، ولتباعد الفترات الزمنية بين بعضها:

ففي رحلة سايلوف يصف الرحالة الكمائن التي كان ينصبها المسلمون للحجاج الصليبيين، الذين كانوا يفدون من أوروبا لزيارة الأراضي المقدسة في الجبال الوعرة التي يسلكها

---

[1] – فورزبورغ، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ص52 .

[2] – انظر بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص67، 69، 116 .

[3] – الظاهر بيبرس .

[4] – بورشارد، وصف الأرض المقدّسة، ص116 .

[5] – المصدر نفسه، ص69 .

[6] – انظر فيتلوس، وصف الأرض المقدسة، ص27 .

[7] – انظر ثيودوريش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ص109 .

أولئك الحجاج ما بين يافا والقدس، وهو هنا يحاول أن يبرز عظم المأساة التي يواجهها الحجاج والمخاطر المحدقة بهم، بل ما كان ينزل في نفوسهم من خوف وفزع، ويصيبهم من قتل، فقد كانت جثثهم تظلّ متناثرة على الأرض تنهشها الوحوش، لأنّ مرافقي القتلى لا يستطيعون دفنهم لحرص كلّ واحد منهم على النجاة بحياته. وهو إذ هدف إلى إعطاء صورة سيّئة عن المسلمين، أشار إلى المقاومة الشعبية المبكرة التي بدأها المسلمون في فلسطين رفضاً للوجود الصليبيّ فيها، وإلى طرق المقاومين في الظهور والتخفّي، واعتمادهم على الكمائن وعنصر المفاجأة، وإلى ما كانت تحدثه هذه الهبّة الشعبية في نفوس الأعداء، وإلى نتائجها العظيمة التي كانت نواة فيما بعد لحركة جهاديّة منظّمة، يقول سايلوف واصفاً ذلك كلّه: " وذهبنا من يافا إلى مدينة بيت المقدس في رحلة استغرقت مسيرة يومين عبر طريق جبلية وعرة وخطرة جداً، حيث أنّ المسلمين اعتادوا أن ينصبوا الكمائن والمصائد للمسيحيين إذ إنّهم يختبئون في الأماكن الجوفاء من الجبال والكهوف الصخرية، وكانوا يراقبون ليلاً ونهاراً حتى تسنح لهم الفرصة لمهاجمة مجموعة من المسافرين، أو الهجوم على أولئك الذي يتخلّفون وراء جماعتهم بسبب التعب، وفي لحظة ما يمكن رؤيتهم في كل مكان ثمّ يختفون كليّة،ويمكن لأي شخص يقوم بمثل هذه الرحلة أن يرى ذلك. كم هو كبير عدد الجثث الملقاة أو الممزّقة من قبل الوحوش في الطريق أو على جانبه، ويمكن للبعض أن يندهش لأنّ تلك الجثث المسيحية ملقاة هناك غير مدفونة، ولكن يجب ألا يندهش المرء البتة، حيث أنه لا يوجد إلاّ قليل من التراب، ولا يمكن الحفر بسهولة في الصخور الصلبة، وحتى لو وجدت الأرض الترابية مَنْ هو الأحمق الذي سيكون بوسعه ترك جماعته والقيام بمفرده بحفر قبر لأحد رفاقه؟ لو فعل ذلك فإنّه سيكون مستعدّاً لعمل قبر لنفسه، بدلاً من قبر رفيقه. على ذلك الطريق ليس الفقير أو الضعيف في خطر بل الغنيّ والقويّ يواجهان نفس الخطر، كثير يُقتل من قبل المسلمين "[1]. إنّ قتل الفقراء يدلّ دلالة واضحة على أنّ ما كان يقوم به المسلمون لم يكن قطع طريق أو لصوصية، ذلك أنّ الهدف منه ليس سلب الأموال أو الأمتعة، ولكن رغبة

[1] – وصف رحلة الحاج سايلوف، ص23 . وانظر محمد عوض، الرحالة الأوروبيون، ص44، محمد النقر، وكتابات بعض الرحالة الأوروبيين، ص201 .

في مقاومة المعتدين الغاصبين[1].

ووقف دانيال الراهب عند حركات المقاومة الشعبية في فلسطين عقب سقوط القدس بيد الصليبيين، ويبدو أنّها كانت حركة قوية تثير الخوف والفزع في نفوس الصليبيين والحجاج المسيحيين الذين يتنقلون بين الأماكن المقدسة في فلسطين، وقد حدّد الأماكن التي انتشرت فيها المقاومة بشدة وضراوة في الطريق من يافا إلى القدس، وفي عسقلان والمناطق المحيطة فيها، إذ قال: " وفي هذا المكان كثير من الينابيع حيث يستريح الحجاج ليلاً وهم في ذعر لأنّ المكان مهجور، وهو ليس بعيداً عن مدينة عسقلان حيث يقوم المسلمون بذبح الحجاج على الطريق "[2]. ويقول بعد أن تحدّث عن مدينة الخليل والجبال القريبة منها: " وهذا المكان غير بعيد من مدينة عسقلان، حيث يتجمّع الكفّار بأعداد كبيرة، ويهاجمون المسافرين من هذا الممرّ، وفوق هذا الجبل "[3]، وانتشرت المقاومة في بيسان " حيث يقطن عدد كبير من المسلمين، الذين يستغلّون مخاضات الأنهار لمهاجمة المسافرين "[4]. ويتحدث دانيال الراهب عن تجربته الخاصة وهو يعبر منطقة جبل طابور غربي طبرية في طريقه إلى الناصرة، فيصف المسلمين وأسلوبهم في المقاومة، وما كانوا يقومون به من عمليات ذبح للمسيحيين العابرين هناك، ولكنّ دانيال قد نجا منهم، ووصل إلى الناصرة بأمان، يقول: " حيث الطريق متعب، ضيّق، وخطر لوجود المسلمين الخطرين، التي تنتشر قراهم فوق الجبال والسهول، وحيث أنهم يندفعون من بيوتهم، ويذبحون المسافرين على تلك المرتفعات الفظيعة، إنّه لمن الخطر أن تعبر تلك المناطق دون حراسة جيّدة، وكانت هذه المرّة تنقصنا حيث أنّنا كنّا ثمانية أشخاص فقط، دون سلاح، ولكنّنا وضعنا الثقة في الله، محروسين برحمته،.....، ووصلنا سالمين إلى المدينة المقدسة في الناصرة "[5].. وكرر دانيال الحديث عمّا كانت تثيره هذه الهبة الشعبية من مخاوف في نفوس الصليبيين، في معرض تقديمه صورة مخيفة للمسلمين من وحي

[1] – انظر محمد عوض، الرحالة الأوروبيون، ص45 .

[2] – رحلة دانيال الراهب، ص49 .

[3] – المصدر نفسه، ص89 .

[4] – المصدر نفسه، ص110 .

[5] – المصدر نفسه، ص123 .

تجربته الخاصة إذ بيّن أنّ الذي منعه من زيارة بعض الأماكن المقدسة في سدوم وجبل لبنان خوفه منهم، كما يبدو في قوله: " ولكنني لم أستطع الذهاب إلى موضع سدوم خوفاً من الكفّار "[1]. وقوله: " ولم أستطع الوصول إلى جبل لبنان خوفاً من الكفّار، ولكنّني حصلتُ على فكرة جيّدة من خلال المرشدين المسيحيين، الذين كانوا يقطنون ذلك الجبل، والذين لم يسمحوا لنا بالذهاب هناك، لأنّ العديد من الكفّار يقطنون في هذا الجبل "[2].

أما رحلة ثيودوريش، فكثر الحديث فيها عن المقاومة الإسلامية المنظمة[3] والشعبية للوجود الصليبي في فلسطين، وجاء ذلك إذ بيّن أثر هذه المقاومة في نفوس الصليبيين، وتنقلاتهم، وقوّة أبنيتهم وتحصيناتهم، وأشار إلى انتشار المقاومة الشعبية في مناطق القدس وأريحا وجبل لبنان. ويتجلّى أثر المقاومة الشعبية الإسلامية، وحركة الجهاد المنظمة في الآتي:

أوّلاً: عبّر ثيودوريش في رحلته عن المخاوف التي كانت تعتري الصليبين وحجاجهم من الحركة الشعبية المقاومة وجودهم في فلسطين، ولهذا أشار في غير موضع من رحلته إلى كثرة الحراسات المرافقة لهؤلاء، وأنّ بعضها كان مخصصاً لهذه الغاية، يتناوبون عليها، كما يبدو في حديثه عن فرسان المعبد الذين كانوا يمتلكون " كثيراً من الأبراج والبيوت الواسعة.. من مهمتهم مرافقة الحجاج الذين يتوجهون إلى الأردنّ، ومراقبة ألا يُصابوا بأذى سواء أفي الذهاب أو العودة من قبل المسلمين، أو بينما يمرّون ليلاً هناك "[4]. ويتحدث عن تنظيم هذه الحراسات لهؤلاء الحجاج المتوجهين إلى نهر الأردن، النازلين جبل الكرانتينا أو القرنطل للاستراحة والصلاة: الحجاج " متعودون أن يقضوا الليل بأن يذهبوا إلى الكرانتينا من أجل الصلاة، ويمكن أن ينظّفوا أنفسهم في مياه نهر الأردنّ، ويتم حماية الحجاج على ثلاث نواح بواسطة الحديقة " حديقة إبراهيم " نفسها من كمين المسلمين، وعلى الناحية الرابعة تحميهم وتحرسهم دوريات من فرسان الاسبتارية

---

[1] – المصدر نفسه، ص95 .

[2] – المصدر نفسه، ص119 .

[3] – أقصد التي كان يقودها قادة المسلمين بجيوشهم .

[4] – ثيودوريش، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ص105 .

والداوية"[1]. وتدخلت المقاومة الشعبية في حياة الصليبيين الاقتصادية في فلسطين فكانوا لا يجرؤون على حراثة بعض الأراضي الخاضعة لسيطرتهم بسببها ، وبخاصة تلك الخاضعة لسلطة كنيسة القديس ألعازر في بيثاني " العيزرية "، فهذه الأرض، كما يقول الرحالة: " لم يتم حرثها وفلاحتها بسبب غارات العرب المسلمين "[2]. **وساهمت المقاومة في ارتفاع أسعار الخشب في القدس،** " لأنّ جبل لبنان، وهو الجبل الوحيد المحاط بخشب الأرز السرو والصنوبر، يقع على بعد مسافة شاسعة عنهم، ولا يستطيعون الوصول إليه خوفاً من هجوم الوثنيين "[3]. **وهذه المقاومة كانت تضطر الصليبيين إلى إخفاء طعامهم، وأسلحتهم في أماكن تحت الأرض،** ويتجلى ذلك في حديثه عن جبل القرنطل أو الكرنتينا، يقول: " إنّ قمة جبل الكرنتينا وكهوفه الموجودة تحت الأرض مليئة بالمؤن والأسلحة التي تخصّ فرسان المعبد الذين لا يملكون حصناً مناسباً بسبب مضايقة المسلمين "[4].

ثانياً: بيّن ثيودوريش أن شدّة هذه المقاومة وأثرها ساهمت في النمط المعماريّ القويّ الذي بنيت عليه قلاع الصليبيين وحصونهم، ولا تكاد توجد إشارة في هذه الرحلة إلى قوّة هذه الحصون ومنعتها إلاّ مرتبطة بالمقاومة الشعبية وشدّتها، والأمثلة على ذلك كثيرة:

- يصف كنيسة القديسة مريم في جبل صهيون بالقدس، فيقول: " وهي محصنة جيداً بالأسوار والأبراج والشرفات ذات الفتحات **ضد هجمات الوثنيين** "[5].
- ويقول في كنيسة السيد المسيح أو كنيسة الصعود على سفح جبل الزيتون بالقدس: "والكنيسة **محصنة بقوة ضد الكفار،** وهي محصنة بالأبراج سواء الكبيرة أم الصغيرة، وكذلك الأسوار والجدران المفتحة من الأعلى، فضلاً عن الدوريات الليلية"[6].

---

[1] – المصدر نفسه، ص108 .

[2] – المصدر نفسه، ص109 .

[3] – المصدر نفسه، ص59 .

[4] – المصدر نفسه، ص107 .

[5] – المصدر نفسه و ص95 .

[6] – المصدر نفسه، ص103، وانظر ص131 .

الحياة الاجتماعية

صوّر الرحالة الأوروبيون والروس جوانب من المجتمع الإسلامي في الأراضي المقدسة في فلسطين والأردن ولبنان، ويمكن تأطير ما تحدثوا عنه في الآتي:

السكّان وطوائف المجتمع

كان بورشارد أكثر رحالة زوّدنا بمعلومات عن المجتمع الإسلامي في العصور الوسطى، وفي العصر المملوكي تحديداً، ففي حديثه عن القدس بيّن أنّ أعداد سكان القدس من المسلمين وغيرهم قليلة، وذلك خشية الحروب والنزاعات، وخشية أن تتعرض المدينة لغزو مدمّر كالذي تعرّضت له في الحملة الصليبية الأولى، يقول: " ولكن سكّان هذه المدينة العظيمة قلائل في هذه الأيام، لأنّ الناس هناك يعيشون برعب مستمرّ "[1]. وقارن الرحالة بين عدد المسلمين في الأراضي المقدسة وبين عدد غيرهم من المسيحيين، وهي مقارنة فيها قدر كبير من المبالغة، فقال: " وسوف تجد ثلاثين مسيحياً أو أكثر مقابل مسلم واحد "[2].

وقدّم بورشارد في رحلته معلومات مهمّة عن طوائف المسلمين وأجناسهم في الأراضي المقدسة في فلسطين والأردن ولبنان في القرن السابع الهجريّ، وتحدّث عن أماكن سكناهم، وطبيعة حياتهم، وقوانينهم، وصفاتهم الشخصية وأخلاقهم، وبعض معتقداتهم وأفكارهم، وهذه الطوائف هي:

1- **المدينيون:** وهم الذين كان يُطلق عليهم في تلك الحقبة الزمنية الترك والبدو والتركمان، "وجميع سوريا مليئة بهم، ولكنّ جزءاً كبيراً منهم يقيم حول نهر الأردن، وفي المنطقة الممتدة من لبنان حتى بريّة باران"[3]، يعيشون " في الخيام مع زوجاتهم وأطفالهم وقطعانهم ومواشيهم وجمالهم " وقد أعجب الرحالة بمنظر جمالهم التي شاهد "عدة آلاف منها"[4]. ثمّ يتحدث عن طبيعة حياتهم وأعمالهم وأخلاقهم وملابسهم، فيقول: "وقد خصّصوا أنفسهم للعناية بالماشية والجمال وإطعامها فحسب، وهم يمتلكون أعداداً

---

[1] – بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص127 .

[2] – المصدر نفسه، ص176 .

[3] – المصدر نفسه، ص55، 174 .

[4] – المصدر نفسه، ص55 .

كبيرة جداً منها، ولا يوجد لهؤلاء الناس مساكن معيّنة، وهم على أي حال يقطنون وينصبون خيامهم حيث توجد المراعي، وهم مولعون بالحرب كثيراً، يستخدمون السهام...، وهم شجعان في الحرب، ولكنّهم يرتدون قميصاً أحمر فقط، وفوقه عباءة واسعة جداً، ويغطون رؤوسهم بقبعة قماش "[1].

2- **البدو:** وصف بورشارد البدو في الأرض المقدسة، الذين يقطنون في بلدة سيجور أو تل الشاغور على شاطئ البحر الميت، والجبال القاحلة الجرداء الواقعة وراء ذلك البحر، وبدا متحاملاً عليهم إذ نعتهم بالبرابرة، ووصفهم بأنهم "رجالٌ وقحون أشرار"[2]. ولعل سبب هذا التحامل أنّهم كذبوا عليه، حين أراد زيارة عمود الملح الذي تحوّلت إليه امرأة لوط عليه السلام، فادّعوا أنّ المنطقة مليئة بالوحوش والأفاعي والديدان، فمنعته هذه الادعاءات من الزيارة، وهي ادّعاءات اكتشف الرحالة بطلانها لاحقاً.

3- **النصيرية:** وهي فرقة إسلامية اشتهرت في القرن السابع الهجري، كانت تقطن جبال كسروان في لبنان، ولهم طقوس دينية بعيدة كلّ البعد عن روح الإسلام، مما اضطر شيخ الإسلام ابن تيمية إلى تشكيل جيش شعبيّ، قاده بنفسه لمحاربة هذه الطائفة، وردّها عن غيّها. أما بورشارد، فتحدث عن أماكن سكناهم، وبيّن موقفهم من المسيحيين، فهم يقيمون في الجبال " التي تبدأ قرب عرقة "في نهاية لبنان"، وتمتد حتى حصن الأكراد"، "وهم شعب همجيٌّ ماكر، يكره المسيحيين"[3].

4- **الحشاشون:** وقف بورشارد كثيراً عند هذه الطائفة التي استفحل خطرها في القرن السابع الهجري، وشكّلت تهديداً كبيراً لحكام تلك الحقبة الزمنية الذين اغتيل عدد منهم على أيدي أتباع هذه الطائفة، فقد كان يستعين بهم أرباب الدول وقتذاك للتخلص من منافسيهم أو أعدائهم، فيُقدم هؤلاء على مهمتهم دون وجل أو خوف، لا همّ لهم سوى طاعة شيخهم، وتنفيذ أوامره، وكان يطلق عليهم في مصادر التاريخ الإسلامي اسم الفداوية، وقد عجزت الدول الإسلامية يومذاك عن التخلص من شرورهم وأذاهم إلى

---

[1] – المصدر نفسه، ص174 .

[2] – المصدر نفسه، ص118 .

[3] – المصدر نفسه، ص55، ص174 .

أن تمكن هولاكو من السيطرة على قلاعهم الألموت سنة654هـ[1]. وكان يُطلق على هذه الطائفة اسم الإسماعيلية، والباطنية، أما اسم الحشاشين، فذلك لاعتمادهم على الحشيشة في تخدير الناس واستقطابهم لمذهبهم وسيطرتهم.

فصّل بورشارد في الحديث عن هذه الطائفة: عن قوّتها، وأعدادها، ونمط حياتها، وقوانينها، وأخلاقها، وأفكارها، وطاعتها العمياء لشيخها، ثمّ بيّن أثرها في المجتمع الإسلامي، وما كانت تحدثه من خوف وفزع في نفوس غيرها من المسلمين، كما تحدّث عن دورها في عمليات التصفية، وعن فشل الدول الإسلامية في التخلص منها، وعن أماكن سكناها، فقال: "وبجانب إرواد البرية " انترادوس = طرطوس "، وعلى بعد نصف فرسخ من جانبها الشرقيّ توجد بعض الجبال قليلة الارتفاع، ولكنّها ذات طبيعة صعبة، إذ لا يمكن تسلّقها أو بلوغها، وتعرف هذه المنطقة باسم أرض الحشاشين "[2]. ويبيّن في موضع آخر من رحلته أنّهم كانوا يجاورون النصيريّة " ولديهم العديد من القلاع والحصون والمدن وأرض خصبة جداً....، ويقال: إنّ لديهم أربعين ألف مقاتل، ولهم رئيس يدعى شيخ الجبال الكبير، ولا يتولّى الشيخ أمرهم بسبب تقدّمه في السنّ، أو عن طريق وراثة المنصب، وإنّما يتمّ اختياره حسب جدارته الشخصية، ومكانته بين أتباعه، ويُقال: إنّ هؤلاء الناس من أصل فارسيّ، وهم مطيعون حتى الموت، وأنّه عند أوامر رئيسهم يقومون بقتل أي واحد مهما يكن، قائلين إنهم بهذا يفوزون بالجنة، حتى لو أنّهم قُتلوا قبل أن يُتمّوا الأوامر "، " وقد رسمت الحدود بين هؤلاء الناس وبين المسيحيين بالحجارة، وتمّ نقش الصلبان في الجانب المسيحي من الحدود، في حين نُقشت السكاكين في الجانب الآخر من الأرض الخاضعة لسلطة الحشاشين. ولم يتمكن أيّ من السلاطين بعد ذلك من قهرهم أو إخضاعهم، ولكنّهم سنّوا قوانينهم الخاصة، وعاداتهم الخاصة، واتّبعوها باختيارهم، وهم يرعبون جميع المواطنين الذين يقطنون بالقرب منهم، بسبب العنف والصرامة التي يتّصفون بها "[3].

---

[1] – انظر الهمذاني، جامع التواريخ، م2 ج1/254–256، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، 464–465، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، 1/85–86 .

[2] – بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص57 .

[3] – المصدر نفسه، ص174–175 .

إن حديث الرحالة عن طوائف المسلمين يتضمن حديثاً عن أنماط حياتهم المختلفة، هذه الأنماط التي ظهرت بصور شتى في رحلته، ومنها قوله متحدثاً عن السهول القريبة من مدينة سويتا في حوران: "...تعوّد المسلمون في أرام، وبلاد ما بين النهرين، وحماة ، وسوريا، ومؤاب، وعمون، وجميع مناطق الشرق الاجتماع حول عين فيالي الرائعة،وقد تعوّد المسلمون الاجتماع بانتظام طوال فصل الصيف بسبب جمال المكان، وكانوا يقومون بنصب الخيام ذات الألوان المختلفة.."[1].

معتقدات المسلمين وحياتهم الدينية

وقف الرحالة على بعض معتقدات المسلمين في المناطق التي زاروها، وصوّروا جانباً من حياتهم الدينية، وبخاصة تحت الاحتلال الصليبي في القدس، وألقوا الضوء على مشاعرهم، وهم يرون المحتلّ يتحكم بأماكنهم المقدسة، وأشاروا إلى ضرب من الحرية الدينية التي كان يتمتع بها المسلمون في ظلّ الاحتلال الصليبي، ففي رحلة يوحنا فورزبورغ، تحدّث الرحالة عن نوع من الحرية الدينية مُنِحها المسلمون في المسجد الأقصى الذي أطلق عليه معبد السيد المسيح، وتجلّى ذلك في حديثه عن البوصلة التي وضعها المسلمون لتشير إلى جهة القبلة، فقال: " وفي المعبد عند المذبح الموجود في الخلاء، وعلى بُعد ما يزيد على اثنين وعشرين خطوة من المعبد قاسى زكريا بن بركيا آلام الاستشهاد، وفوق هذا المذبح تعوّد اليهود في العهد القديم تقديم القبريات والحمام، وتغيّرتْ بعد ذلك عن طريق المسلمين إلى بوصلة، ويمكن رؤيتها في هذا اليوم، وهي جديرة بالاهتمام لأنّ العديد من المسلمين حتى الوقت الحاضر يأتون عندها للصلاة، حيث أنها تشير إلى الجنوب، أي إلى الاتجاه الذي يولون وجوههم إليه من أجل الصلاة"[2].

وقدّم يوحنا فورزبورغ معلومات مهمة عن عبث الصليبيين بقبة الصخرة، ومحاولتهم تغيير معالمها وإسباغ المعالم المسيحية عليها حين نصبوا الصليب فوقها، وعكس الرحالة مشاعر المسلمين الدينية وقتذاك، إذ صوّر تعلقهم بالحرم القدسي، ورغبتهم في التخلّص من ذلك الصليب، فقال: " وهذه القبة مدهونة من الداخل ومغطاة من الخارج بالرصاص، ويوجد شكل الصليب المقدّس في القمّة حيث وضعه المسيحيون، والذي يعتبره المسلمون

[1] – المصدر نفسه، ص74 .

[2] –فورزبورغ، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ص47 .

مزعجاً جداً، والعديد منهم مستعدٌّ لدفع الذهب الكثير من أجل إبعاده، لأنّهم بالرغم من كونهم لا يُصدّقون آلام المسيح، إلاّ أنّهم يجلّون ويقدّرون هذا المعبد لأنّهم يعبدون خالقهم هناك "[1]. وهذه الحقيقة أكّدها أحد الشعراء الذين رثوا القدس عقب سقوطها سنة 492هـ، فقال:[2]

وكم من مسجد جعلوه ديراً على محرابه نُصب الصليبُ

دمُ الخنزيرِ فيه لهم خلوقٌ وتحريق المصاحف فيه طيبُ

وأشار فورزبورغ إلى بعض المعتقدات الدينية عند المسلمين، وإلى بعض الأماكن التي يبجلونها لارتباطها بموروث دينيّ عندهم، وهذا ما يبدو في حديثه عن شجرة البلوط في مدينة الخليل " التي أقام تحتها سيدنا إبراهيم فترة طويلة، كما شاهد تحتها الملائكة الثلاثة، واستضافهم بكلّ ما يقدر عليه، وقدّم لهم الطعام، وجعلهم يستريحون، كما قام بتبجيل أحدهم، وقد صرّح القديس جيروم أنّ شجرة البلوط سابقة الذكر كانت موجودة زمن الإمبراطور ثيودوسيوس، والشجرة الموجودة حالياً نبتتْ منها، وهي تُرى في هذه الأيام، وتحظى باهتمام وعناية سكّان ذلك المكان "[3].

ويتحدث بورشارد عن الأماكن الأخرى المقدسة عند المسلمين، وعن المعتقدات التي كانوا يعتقدون بها حول هذه الأماكن، فيبيّن أنهم يجلّون الكهف الموجود على سفح جبل عكار في لبنان،" ويقومون بزيارته، ويقولون: إنّه قبر يوشع "[4]. أمّا معتقداتهم حول الأماكن المقدسة أو المرتبطة بالأنبياء عليهم السلام، فتتجلى في حديثه عن البئر الموجودة في حديقة البلسم في جبل عين جدي بأريحا، حيث اختفى داود في هذا الجبل حين كان شاؤول يبحث عنه ليقتله، فأهل المنطقة من المسلمين يعتقدون " أنّه من مساء يوم السبت حتى يوم الاثنين فإنّ الثيران لا يمكنها أن تُخرج المياه من البئر حتى لو قطعت إلى قطع "[5]. ومثل ذلك اعتقادهم بالتربة الحمراء التي خلق منها آدم، وهي في حقل دمشق بالخليل، فيقال:" إنّه لا يمكن لأيّ حيوان مفترس مهاجمة الذي يحمل شيئاً من تلك التربة، كما أنّها

---

[1] – المصدر نفسه، ص49 .

[2] – عبد الجليل عبد المهدي، بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية، ص70 .

[3] – فورزبورغ، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ص98 .

[4] – بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص53 .

[5] – بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص122 .

تحمي المرء من السقوط "[1]، ويبدو أنّ هذه الأفكار هي من اختراع تجار هذه التربة الذين كانوا يحملونها إلى بلاد شتى ليبعوها، فهي بمثابة الحملة الترويجية لها. وقد شغلت هذه التربة، والمعتقدات حولها حيزاً من الرحلات الأوروبية، فهذا فيتلوس يبيّن معتقد المسلمين حول لون هذه التربة، فيذكر أنّه لمّا كانت " ذاتَ لون أحمر، فإنّ الاعتقاد السائد لدى أهل الخليل بأنّ آدم، عليه السلام، ذو بشرة حمراء "[2].

موضوعات اجتماعية أخرى

وتناول الرحالة موضوعات اجتماعية أخرى، فأشاروا إلى بعض الجوانب السلبية مثل انتشار **اللصوصية، وقطع الطريق**، ويتجلى ذلك في رحلة دانيال الراهب إذ تحدّث عن هذه الظاهرة الاجتماعية وانتشارها في الطريق بين بيت المقدس ونهر الأردن من فوق جبل الزيتون حيث "تتواصل هجمات قطّاع الطرق في هذه الجبال الوعرة والممرات المخيفة"[3]. ممّا كان يدفعه إلى الاستعانة ببعض زعماء المسلمين لحمايته وإيصاله إلى المكان الذي يقصده بالزيارة، وقد فعل ذلك في رحلته إلى بيت لحم: " وسرنا تحت حماية أحد زعماء المسلمين حتى بيت لحم، وقد صحبنا إلى كلّ مكان، وبدون مساعدته لم يكن ليتسنّى لنا عبور تلك الأماكن بسبب هجمات قطاع الطرق في الجبال "[4]. ولعلها الإشارة الإيجابية الوحيدة في الرحلة للمسلمين، وأتت بعد احتكاك الرحالة بهم.

ولم يغفل الرحالة الحديث عن لغة المسلمين، فركزوا على نطقهم أسماء بعض المدن والأماكن التي قصدوها بالزيارة، فيوحنا فورزبورغ يبيّن أنّ مدينة جنين التي تقع " على بعد ميلين من زرعين..تُدعى الآن باسم جالينا العُظمى "[5]. أمّا شكيم، فتدعى" في هذه الأيام باسم نيابوليس "[6]. ويقول: " وعلى بعد ميل من الناصرة باتجاه الجنوب، وقع الموضع الذي يُدعى المنحدر، حيث أولئك الذين عثروا على السيد المسيح رغبوا طرحه

---

[1] – المصدر نفسه، ص160 .

[2] – فيتلوس، وصف الأرض المقدسة، ص38 .

[3] – رحلة دانيال الراهب، ص69 .

[4] – المصدر نفسه، ص97 .

[5] – فورزبورغ، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ص 30 .

[6] – المصدر نفسه، ص39 .

أسفل، ولكنه جاز في وسطهم واختفى في لحظة. وفي هذه الأيام يطلق العامة على المكان موضع وثوب السيد المسيح "[1]. أمّا بورشارد، فبيّن أن المسلمين كانوا ينطقون كابول الواقعة جنوب شرق عكا زابول[2]. ويقول عن بيت إيل جنوب سبسطية: " ويحرّف المسلمون اسمَ هذا المكان إلى بوت إيل دون أن يكون لديهم القدرة على قول بيت إيل "[3].

وأشار الرحالة الأوروبيون إلى العلاقات بين المسلمين والمسيحيين الشرقيين في الأراضي المقدسة، ولعل أبرز إشارة إلى ذلك وردت في رحلة بورشارد ، إذ بيّن أنّ المسلمين كانوا يعاملونهم معاملة حسنة، تختلف عن معاملتهم للصليبيين القادمين للحج والاستيطان في الأرض المقدسة، وتجلّى ذلك في حديثه عن النصارى الذين كانوا يقيمون في بيت لحم والمناطق المحيطة بها في قرية بيزك " بيت بزان "، وفي وادي الصرار، ووادي السنط " وادي أشكول "، فقد اشتهر هؤلاء بزراعة الكروم وصناعة النبيذ، وكانوا يقدّمون الجزية للدولة الإسلامية التي كانت تقوم برعايتهم، وتمنحهم حقّ الإقامة[4]. وتحدّث في موضع آخر عن تبعية هؤلاء النصارى الشرقيين للمسلمين، ودفعهم الجزية لهم، وعلّل هذه التبعية بأنّ هؤلاء المسيحيين الشرقيين " غير مدرّبين كثيراً، ولم يكونوا قيد الاستعمال الحربيّ، وعندما يُهاجمون من قبل المسلمين والأتراك، أو من قبل أي جماعة أخرى، يستسلمون لهم، وينشدون تأمين الأمن والسلام والهدوء مقابل دفع الجزية "[5].

الجانب الحضاري

أشار الرحالة إلى جوانب من الحضارة والمدنية في بعض المدن والأماكن التي زاروها في الأراضي المقدسة، وقد يكون الحديث في معرض استرجاع ماضي هذه الأماكن، والمقارنة بين حاضرها الصليبي وماضيها الإسلاميّ، كما يبدو في رحلة فيتلوس إذ أنصف هذا الرحالة المسلمين من الناحية الحضارية، فوصف مدينة قيسارية، في لحظة

---

[1] – المصدر نفسه، ص30 .

[2] – بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص68 .

[3] – المصدر نفسه، 107 .

[4] – بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص156 .

[5] – المصدر نفسه، ص176 .

من الزمن سابقة وقت زيارته لها، وقد كانت مزدهرة تحت الحكم الإسلامي، كازدهار القاهرة وبغداد وقتذاك، ومن مظاهر هذا الازدهار أنّهم جعلوها جنّتهم، على حدّ تعبيره، ثمّ وصف الروائح العبقة التي كان يحرص المسلمون على نشرها في أجوائها، وهي إشارة إلى ترف الحياة ونعيمها، فقال: " وفي محيط المدينة بين الحدائق كان يوجد كهوف متعددة أنشئت من حجارة، وحيث يتم خلط التوابل والعطور فوق النار، وبذلك تصبح جميع المدينة معبقة بنسمات رائحة ممتعة مانعة كلّ الروائح الكريهة من أجل إنعاش ملامح المواطنين، ولكنّ كلّ ذلك لم يعد موجوداً الآن "[1].

وفي الرحلة ذاتها يتناول فيتلوس جانباً حضارياً آخر، إذ تحدث " عن المزارات العلاجية التي يذهب إليها المصابون بالأمراض الجلدية للاستشفاء " في عيون طبرية الساخنة[2]، والحمامات الطبية في سهل الزعرور قرب أمّ قيس[3].

ويبدي بورشارد في رحلته إعجابه بالعمارة الإسلامية في الأراضي المقدسة، وتجلّى ذلك في حديثه عن القلعة التي بناها المسلمون في الخليل الجديدة قرب الكهفين حيث دُفن آدم وحواء، وإبراهيم وسارة وإسحاق، يقول: " وقد بنى المسلمون قلعة رائعة قوية حول هذا الكهف المزدوج، الذي يوجد داخله مقرّ الأسقف. وقد رأيتُ على جدرانها أحجاراً يبلغ حجمها ستة وعشرين قدماً، وثمانية وعشرين قدماً، وثلاثين قدماً، ولم أرَ مكاناً قويّاً مثل هذا بني على أرضيّة جافّة "[4].

وممّا قد يدخل في هذا الإطار حديثه عن انتشار الحاميات العسكرية الإسلامية ومراكز التدريب في الأراضي المقدسة، فهو يقول عن المسلمين: " ولديهم ايفيبايه[5] في كلِّ مدينة "[6]. ويقول: وفي سهل قاقون في سفح جبل نابلس " أقام المسلمون حامية عسكرية في هذا المكان لمراقبة قلعة عتليت " قلعة الحجاج " "[7].

---

[1] –فيتلوس، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ص73 .

[2] – مقدمة الترجمة العربية، ص17 .

[3] – فيتلوس، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ص55 .

[4] – بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص159 .

[5] – مركز تدريب عسكري للشباب .

[6] – بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص172–173 .

[7] – المصدر نفسه، ص163 .

وتعمّد بعض الرحالة تجاهل الوجود الإسلامي، في الأراضي المقدسة، فحين تحدّثوا عن عمارة بعض الأماكن المقدسة التي ترتبط بالمسلمين وغيرهم، لم يشيروا البتة إلى الطراز المعماري الإسلامي فيها، وركّزوا على العمارة المسيحية، ومن هؤلاء ثيودوريش الذي جعل قدسية هذه الأرض مرتبطة بالديانة المسيحية حسب، كما يبدو في حديثه عن كنيسة ضريح المسيح، عليه السلام،: " الأثر الوحيد الذي ما يزال قائماً، ثمّ ما سنتحدث عنه بخصوص الأماكن المقدسة التي على أساسها تسمّى المدينة نفسها مقدسة، لذلك فكّرنا أنّه من الصواب البدء بأقدس المقدسات، أي من ضريح السيد المسيح، تعرف كنيسة الضريح المقدس "[1]. ويتجلّى هذا التجاهل في حديثه عن قبة الصخرة وطرازها المعماري، وشكلها المثمّن، فلم يشر إلى اليد الإسلامية التي ساهمت في جعلها على قدر كبير من الروعة والجمال، وإنّما اكتفى بالوصف والحديث عن ارتباطها بالدين المسيحيّ، ونقل ما على جوانبها من نقوش مسيحية: " من الواضح أنّ المعبد نفسه ذو شكل ثماني من الجزء الأسفل. أمّا الجزء العلويّ، فهو مزيّنٌ بالرخام الجميل جداً حتى منتصفه، ومن المنتصف حتى جوانبه العليا، حيث يوجد الرووف المزيّن بأعمال الفسيفساء بشكل رائع جداً "، " ويشكّل السور العلويّ دائرة ضيّقة مثبتة على أقواس داخل المبنى، وتدعم رووفاً رصاصياً له عند قمّته كرة كبيرة فوق صليب مذهب "[2]. ويوضح هذا النصّ التغيّرات الدينية التي طرأت على قبة الصخرة عقب الاحتلال الصليبي للقدس، إذ أزالوا عنها الهلال، واستعاضوا عنه بالصليب.

وفي الرحلة ذاتها يصف ثيودوريش شوارع القدس، ونمط بيوتها المعماري، ويقارن بينها وبين النمط المعماري الأوروبي، فيلاحظ الفرق بين النمطين، لأنّ منازل القدس بنيت على الطراز الشرقي الإسلاميّ، فهو يشير إلى ذلك، ولكنّه يتجاهل الأيدي العربية الإسلامية التي بنتها، فيقول: " كل شوارع المدينة تقريباً مرصوفة بحجارة مقنطرة ومثقوبة بنوافذ عديدة لتمرير الضوء. أمّا المنازل، فهي مدعمة بأعمال حجرية ذات شكل رائع، وهي لا تنتهي بطوابق علوية مكشوفة من الأعلى طبقاً لأسلوبنا، وإنّما يقيمونها

[1] – ثيودوريش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ص61 .

[2] – المصدر نفسه، ص81–82 .

مستوية، وذات سطوح منبسطة "[1].

الحياة الاقتصادية

حفلت الرحلات الأوروبية والروسية في العصور الوسطى بالحديث عن الحياة الاقتصادية في الأراضي المقدسة، فرسموا لها صورة إيجابية جداً، تجسّد الصورة النمطية في أذهان المسيحيين الغربيين عن الأرض التي تدرّ عسلاً ولبنا، وهذه الصورة حلقة في سلسلة الدعاية والترويج الإعلامي للحروب الصليبية، والدعوة إلى الهجرة والاستقرار في الأرض المقدسة. ولم يصف هؤلاء الرحالة هذا الجانب باعتباره صورة للمسلمين وأرضهم، فهم يعدّونها أرضاً مسيحية اغتصبها المسلمون، فهي صورة لأرض المسيح، ومهد الديانة المسيحية.

لقد وقفوا على مظاهر متنوعة من الحياة الاقتصادية، فتحدثوا عن جغرافية الأرض: خصوبتها، وجمالها، ومياهها، وعن مزروعاتها، وأشجارها، وحيوانها، وأسواقها، وبعض صناعاتها، ووقفوا على جوانب من نشاط المسلمين الاقتصادي فيها.

جغرافية الأرض المقدسة

أطال الرحالة في الحديث عن جغرافية الأرض المقدسة، وأكثروا من عبارات الثناء والإطراء، إذ جعلوها أكثر البسيطة جمالاً، وبهاء، وخصوبة، وخيرات، ولا يخفى أنّهم تحدّثوا عنها من واقع قدسيتها المرتبطة بأذهانهم، ودليل ذلك أنّهم حين ذكروا شحّ المياه في القدس، بيّنوا أنّه على الرغم من شحها إلاّ أنّها خصبة، وجنة الله في أرضه، ويتجلى هذا في رحلة دانيال الراهب[2] وفي قوله يصف بيت المقدس: فعلى الرغم من أنّ هذه المدينة يحيط " بها كثير من الأودية القاحلة والجبال الصخرية، والمنطقة خالية من الماء بشكل مطلق، حيث لا يجد المرء نهراً، أو آباراً، أو ينابيع قرب بيت المقدس باستثناء بركة سليمان، لذلك ليس أمام سكّان المدينة والماشية شيء يستخدمونه سوى ماء المطر، وبالرغم من ذلك فالحنطة تزدهر بشكل جيّد في تلك الأراضي الصخرية التي ينقصها المطر، والحمد لله على فضله ورحمته حيث أنّ محاصيل القمح والشعير ممتازة، وعند

[1] – المصدر نفسه، ص59 .

[2] – انظر محمد عوض، الرحالة الأوروبيون، ص82 .

بذار مكيال واحد، نستطيع الحصول على مائة وتسعين عند الحصاد. أليست بركات الله تخيّم على هذه الأرض المقدّسة؟ "[1]. ويتجلّى هذا الانبهار في وصفه لأرض الخليل إذ قال: " وفي الوقت الحاضر فإنّ هذه الأرض هي حقّاً التي وعده[2] بها الله، ووهبها مع كلِّ الأشياء الحسنة "،" هي أكثر وأفضل من أي مكان على وجه الخليقة، ولا يوجد مكان على وجه هذه الأرض يعادل هذا المكان قيمة "[3]. ويقول في جبل طابور غربي طبرية: " ويعدّ جبل طابور عملاً رائعاً من صنع الله لا يستطيع المرء وصفه، إنّه جميل جداً، ومرتفع جداً، وعظيم جداً "[4].

وتحدّث عن خصوبة الأرض، ووفرة المياه في الأراضي المقدسة، فأرض أريحا تتسم "بالخصوبة والإنتاج"، وتنتشر في المناطق التي حولها "عدة عيون من الماء"[5]. وفي بيت لحم " هناك كثير من الحقول الخصبة والأودية "[6]. ويتخلل مدينة نابلس " عدد من الينابيع العذبة الباردة المياه"[7]. أمّا بيسان، فتتدفّق " سبعة أنهار من هذه المدينة"[8].

وذكر الرحالة أنواع الأشجار والنباتات التي تزرع في الأراضي المقدسة، وبعضها تشترك فيه هذه الأراضي وبخاصة التين والزيتون، فعلى ضفاف نهر الأردن قرب استحمام السيد المسيح " غابة من أشجار صغيرة، مثل الصفصاف، وهناك على طول الضفّة نوع من أشجار الأسل والسمّار[9]، وهناك الكثير من أشجار البوص "[10]. وتنتشر في أريحا " كميات كبيرة من أشجار النخيل العالية "، وفي المناطق المحيطة بها " جميع أنواع

---

[1] – رحلة دانيال الراهب، ص68 .

[2] – الضمير يعود على إبراهيم، عليه السلام، .

[3] – رحلة دانيال الراهب، ص92 .

[4] – المصدر نفسه، ص120 .

[5] – المصدر نفسه، ص75 .

[6] – المصدر نفسه، ص87، وانظر ص88 .

[7] – المصدر نفسه، ص108 .

[8] – المصدر نفسه، ص110 .

[9] – " نوع من الأشجار تستعمل أوراقه لصنع الكراسي " . الرحلة، ص71، حاشية 2 .

[10] – رحلة دانيال الراهب، ص71 .

الفاكهة الأخرى "[1]. وفي بيت لحم " تكسو المنحدرات السفلى للجبال أشجار الفاكهة والزيتون والتين، وأشجار الخرّوب، وتكثر كروم العنب قرب بيت لحم "[2]. وتكسو منحدرات جبال الخليل " أشجار الكروم، وعدد غير محدود من أشجار الفاكهة المختلفة، وأشجار الزيتون والتين والخروب والتفّاح والكرز، وأنواع أخرى من الأشجار. وهناك أيضاً مختلف أنواع الخضروات "[3]. وتنمو جميع أنواع الأشجار على منحدرات جبل طابور " مثل أشجار الزيتون، والتين، وأشجار الخروب بأعداد كبيرة"[4]. وتكثر في بيسان " أشجار الأسل أو السمّار على ضفافها، وتكثر بساتين أشجار البلح في هذه المدينة"[5]. أمّا نابلس، فتكثر" في أراضيها جميع أنواع أشجار الفاكهة مثل التين، والبندق، والخروب، وأشجار الزيتون....، وعلى حدودها توجد حقول غنية بجميع أنواع الحنطة"[6].

ويتحدث فيتلوس عن المزروعات فبيّن أنّ عين جدي في أريحا اشتهرت بزراعة الكرمة، والعنب الأنجاديّ، و"أشجار البلسم بشكل كثيف ورائع"[7].

أمّا ثيودوريش، فأكثر في رحلته من وصف جمال الأماكن المقدسة وبهائها، وعدّد بعض نباتاتها، ومزروعاتها، وأشجارها المثمرة، وتحدّث عن مياهها، وقد حظيت القدس وجبالها أكثر من غيرها بالحديث عن هذه الجوانب يقول: " والآن تغلب الطبيعة الجبلية على منطقة جبل القدس بمعظم أجزائها، وترتفع حول المدينة المقدسة بحلقات فائقة الجمال، وتنحدر من كلّ الجوانب.... ومن ناحية أخرى فكأنّ المرء يصعد إليها من خلالها، وتعتبر هذه الجبال في بعض الأماكن وعرة وخشنة، مع وجود كتل صخرية صلبة. وفي مناطق أخرى تعتبر مزخرفة بحجارة ملائمة بشكل رائع لتقطع حجارة مربعة الشكل، وفي أخرى، فهي مزينة بالرخام الأبيض، والأحمر، والمرقش، ولكن في أية رقعة

---

[1] – المصدر نفسه، ص75 .

[2] – المصدر نفسه، ص87 .

[3] – المصدر نفسه، ص92 .

[4] – المصدر نفسه، ص120.

[5] – المصدر نفسه، ص110 .

[6] – رحلة دانيال الراهب، ص108–109 .

[7] – فيتلوس، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ص40 .

من الأرض موجودة بين الكتل الصخرية تبدو الأرض ملائمة لإنتاج جميع أنواع الفاكهة، حيث أنّنا شاهدنا التلال والجبال المغطاة بكروم العنب، والمزروعة بأشجار الزيتون، والتين، والوديان المحاطة بالقمح ومنتوجات الحدائق "[1]. وفي موضع آخر يصف جبل الزيتون بالقدس بأنّه " أعلى من جميع الجبال المحيطة بالقدس، وهو يزخر بكافة أنواع أشجار الفاكهة "[2]. ويشير إلى اعتماد أهل القدس على مياه الأمطار في حياتهم، فهم يجمعونها " ويخزنونها بصهاريج من أجل استعمالهم الشخصي، ولا يستخدمون ماءً آخر، لأنّه لا يوجد غيره "[3].

ويتحدث ثيودوريش عن السهل الذي تقع فيه حديقة إبراهيم في أريحا قرب الأردنّ، فيصف امتداده، وحسنه، ومزروعاته: " وتعتبر مساحة هذه الحديقة مضاعفة، وهي تشتمل على سهل عظيم يرويه جدول جميل. إنّ عرض هذا السهل يمتد على طول وادي الأردن، وطوله يمتد على طول البحر الميت، فهذا السهل يمتاز بالتربة الصالحة لزراعة كلّ أصناف الفواكه، كما يعجّ بالخشب والنباتات الشائكة، رأينا حديقة مليئة بالأشجار التي تحمل التفاح الكثير، ولكن ذو حجم صغير، كما شاهدنا هناك شعيراً ناضجاً..."[4]. ويذكر في موضع آخر أنّ الذي يزوّد هذه الحديقة والسهول المحيطة بها " نبع عظيم التدفّق " من على سفح جبل القرنطل أو الكرنتينا في وادي الأردن.

ويقف ثيودوريش على أرض أريحا، فيبيّن أنّها " الآن بلدة صغيرة " " تقع في أرض خصبة حيث تنضج جميع الفواكه على اختلاف أنواعها سريعاً، كما تنمو كثير من الورود، وتتفتح فيها عدد وافر من التبلات " التويجات "...، كما أنّ هذا المكان مشهور بكروم العنب الفاخرة "[5].

ومثل هذه المعلومات يقدّمها عن السامرة " سبسطية " الغنية بتربتها وكرومها

---

[1] – ثيودوريش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ص55–65 .

[2] – المصدر نفسه، ص103 .

[3] –المصدر نفسه، ص59 .

[4] – المصدر نفسه، ص105 .

[5] – المصدر نفسه، ص109 .

وفواكهها[1].

ويشير الرحالة في حديثه عن يافا إلى أهميتها البحرية، فهي " تمتلك ميناء خطيراً لشحن السفن خلال العواصف الجنوبية "[2].

وتناول بورشارد جغرافية الأرض المقدسة، وأثنى عليها، وذكر ما اشتهرت به من نباتات، وأنواع الفاكهة والخضروات والأعشاب، وبيّن طريقة زراعتها، ووصفها وصفاً دقيقاً، فقال: "يجب أن تعرفوا أنّ جميع الأراضي المقدّسة تعتبر أفضل من جميع الأراضي حتى يومنا هذا...، والأرض المقدسة خصبة وغنية جداً بالقمح، الذي يُزرع وينمو دون أدنى جهد. كما تجود الأرض بالعديد من الأعشاب الطبيّة أو العطرية: الشومر، والمريمية، والسذاب[3]، والورود التي تنمو في كلِّ الأراضي المنبسطة التي تلائمها"[4]. ومن المزروعات والثمار القطن، وقصب السكّر، وكروم العنب " والبرتقال، والليمون، وتفاح آدم"، "وهناك أيضا فاكهة تُدعى الخوخ"، "ويكثر في الأرض المقدسة التين والرمان والعسل، والزيت والخضراوات بجميع أنواعها مثل الخيار والقرع وفاكهة أخرى عديدة "[5]. وتحدّث عن النباتات المستوردة التي تُجلب من دمشق وهي الكمثرى والتفاح والكرز، ويعلل ذلك بقوله: " ويتمّ إحضار بعض الفاكهة من دمشق، إلاّ أنّها تكون طرية جداً، ولا تصمد مدة طويلة، بسبب حرارة الجو العالية أثناء تواجدها على الشجر، فضلاً عن دفء الأرض"[6].

وخصص بورشارد جزءاً من رحلته للحديث عن الموز، الذي لم يسبق له أن رآه في بلاده، وبدا عليه الإعجاب بهذه الفاكهة إذ وصفها بهذا الوصف الدقيق، فقال: " وهناك نوع آخر من الفاكهة يدعى الجنة " الموز "، وهو فاكهة لذيذة جداً، وينمو مثل عنقود

---

[1] – المصدر نفسه، ص129 .

[2] – المصدر نفسه، ص148 .

[3] – " نوع بري وبستاني، إلاّ أنّ البريّ أصغر ورقاً واحدّ رائحة، ويطلق عليه اسم الفيحن، والبستاني يزرع طوال السنة " . ثيودوريش، وصف الماكن المقدسة في فلسطين، ص168، حاشية 2 .

[4] – بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص167–168 .

[5] – انظر تفصيل ذلك المصدر نفسه، ص168–171 .

[6] – المصدر نفسه، ص169 .

العنب الذي يشتمل على عدة حبات. وهذا العنقود كبير في حجم سلّة كبيرة، ويحتوي العنقود في بعض الأحيان على ستمائة حبة أو أكثر، وجميع هذه الفاكهة ذات شكل مستطيل، ويبلغ طول كلِّ حبة منها نحو ستة أصابع، وسمكها كسمك بيضة الدجاجة. وهي ذات قشرة سميكة مثل غلاف حبّة الفاصولياء، ولونها أصفر ناعم، ويُخرج المرءُ الثمرة ويأكلها، ويُلقي بالقشر جانباً، ومذاقها لذيذ جداً، مثل الزبدة والعسل المأخوذ من النحل، ولا تحتوي هذه الحبات على بذور بداخلها ، ولكنها قابلة للأكل مباشرة، وتحتاج هذه الثمار لأكثر من سنة حتى تنمو. وتبقى الشجرة أيضاً ولكن لوقت قصير، سنتين في الأغلب، وتذبل بعد ذلك مباشرة، ولكنها عندما تبدأ بالذبول تبدأ شجرة أخرى بالتبرعم أو النمو مباشرة من جذورها، وتقوم بنفس ما قامت به الشجرة السابقة، أمّا أوراق هذه الشجرة، فهي طويلة بارتفاع رجل، وعريضة بحيث يمكن للمرء أن يغطّي كلّ جسده بورقتين منها "[1]. إنّ هذا الوصف الدقيق مقصود بذاته، لتعريف الأوروبيين بخصائص الأرض المقدسة، فهو يحقّق في هذه الرحلة هدفاً دعائياً فيدفعهم بذلك إلى الالتفات مرّة أخرى نحو هذه الأرض، وهذه الدعاية تتجلى بصراحة في بعض العبارات التي أطلقها في ثنايا رحلته، ومنها قوله: "وباختصار يوجد هناك كل الأشياء الجيدة في العالم. وتفيض الأرض بالحليب والعسل"[2].

النشاط الاقتصادي والتجاري

قدّم الرحالة صورة عن النشاط الاقتصادي الإسلامي في الأراضي المقدسة، فتحدثوا عن مصادر الدخل، والأعمال التي كان يمارسها المسلمون من أجل تأمين لقمة العيش في الزراعة والتجارة والصناعة..، وذكروا بعض الأسواق المهمة يومذاك، وصوروا رفاهية بعض المدن وسعة خيراتها، فهذا فيتلوس يصف بيروت بأنها " مدينة غنية جداً "[3] .

ويتحدث بورشارد عن بعض مصادر دخل المسلمين ودولتهم في العصر المملوكي، فيبيّن أنّها كانت تعتمد في بعض مصادر دخلها على الجزية، التي كانت تأخذها من النصارى الشرقيين في مناطق بيت لحم، وهؤلاء عُرفوا بزراعة الكروم وصناعة النبيذ،

---

[1] – المصدر نفسه، ص169 .

[2] – المصدر نفسه، ص171 .

[3] – فيتلوس، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ص 77 .

ولذلك "حصل المسلمون على عائدات عظيمة منهم قُدِّمتْ إلى السلطان"[1].

أمّا المسلمون، فكانوا يزاولون غير مهنة وعمل، ومنها زراعة الكروم، وبخاصة عند أولئك " الذين يقطنون بالقرب من المسيحيين "، فيبيعونه لهم [2].

وتناول غيره من الرحالة أعمال المسلمين التجارية، فحين تحدث فيتلوس عن الخليل وأريحا ذكر أنّ الأهالي كانوا يجمعون من البحر الميت مادة القطران والشبّة وحجارة الطواحين والبيتومين الذي كان يستخدمه الأطبّاء[3]، وبيّن أنّهم كانوا يستخدمونه " لأغراض عديدة، منها دهن الجمال لإزالة الجرب، أو الحكّة، ولطلاء الكروم لإزالة الديدان التي تتغذى عليها "[4] وقريب من هذا ورد في رحلة يوحنا فورزبورغ حين وصف الخليل، وأطلق على البحر الميت بحر الإسفلت وبحر الشيطان، يقول: " وخلف البحيرة سالفة الذكر يوجد كثير من حجارة الشبّة والقار التي تجمع من قبل السكان، ويُستخرج من البحر الميت البيتومين "القار" المعروف لبيتومين اليهودي"[5].

وكان أهل الخليل، كما يصف فيتلوس، يجلبون من جزر البحر الميت " الأشجار والحطب بواسطة سفينة صغيرة، ويستهلكها سكّان المنطقة "[6]. وهي إشارة تفيد أنّ سكّان الخليل كانوا يستخدمون " السفن الصغيرة في البحر الميت، وذلك لجلب ما يحتاج إليه سكان المناطق المجاورة "[7]. وفي سياق حديثهم عن النشاط التجاري في الخليل أفاضوا في الحديث عن تجارة أهلها بالتربة الحمراء الموجودة في حقل دمشق هناك، تلك التربة التي خلق منها آدم، عليه السلام، وتناولوا أهميتها لأهل الخليل في معاملاتهم التجارية، وذكروا المناطق التي كانوا يصدّرونها إليها، وإلى أسعارها المرتفعة التي كانوا يبيعونها بها، يقول فيتلوس: " ويقوم السكان الآن باستخراج تلك التربة الحمراء، واستخدامها كما يقومون

---

[1] – بوررشارد،وصف الأرض المقدسة، ص156 .

[2] – المصدر نفسه، ص170 .

[3] – فيتلوس، وصف الأرض المقدسة، ص40 .

[4] – المصدر نفسه، ص40 .

[5] – فورزبورغ، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ص99 .

[6] – فيتلوس، وصف الأرض المقدسة، ص41 .

[7] – المصدر نفسه، ص112، حاشية 145 .

بتصديرها إلى مصر، والأراضي العربية، حيث تُباع بسعر مرتفع، ورغم الكميّات الكبيرة التي تستخرج من الحقل السالف الذكر، إلاّ أنّه يكون في نهاية السنة متجدداً، كما كان عليه الحال من قبل، وذلك بقدرة الله تعالى "[1]، ومثل هذا الحديث ورد في رحلة يوحنا فورزبورغ إذ قال: "وفي الخليل يوجد حقل تمتاز تربته بلونها الأحمر، ويقوم الأهالي باستخراجها واستخدامها، كما يقومون بتصديرها إلى مصر حيث تُباع بسعر مرتفع، وعلى الرغم من الكميات الكبيرة التي تُستخرج من الحقل الآنف الذكر، إلاّ أنّه يكون في نهاية كلِّ سنة متجدداً كما كان عليه الحال من قبل، وذلك بقدرة الله سبحانه وتعالى"[2]. وكان بورشارد أكثرهم تفصيلاً ودقة في الحديث عن هذه التربة، وعن أهميتها، وخصائصها، والدول التي تُصدَّر إليها، والدخل الذي توفره للمسلمين، يقول بعد أن تحدّث عن الخليل، وعن الكهفين اللذين دفن فيهما آدم وحواء: "وغرب الكهف المزدوج برمية سهم يوجد حقل دمشق، حيث تمّ هناك خلْقُ آدم وحوّاء من الصلصال، وفي الحقيقة فإنّ لهذا الحقل تربة حمراء رائعة يُمكن أن تُشكّل مثل الشّمع، وقد أخذتُ كمية كبيرة منها معي. وقد فعل نفس الشيء بقية الحجاجِ المسيحيين الذين زاروا هذه الأماكن، وعلاوة على ذلك فإنّ المسلمين يحملون هذه التربة على ظهور الجمال إلى مصر، وأثيوبيا، والهند، وأماكن أخرى، ويقومون ببيعها مقابل كميات من التوابل القيّمة"[3].

ولم يغفل هؤلاء المرتحلون الحديث عن بعض الصناعات التي كانت مزدهرة في بعض المدن في الأراضي المقدسة، يذكر دانيال الراهب أنّ مدينة نابلس اشتهرت بإنتاج " الزيت، والنبيذ، والقمح، والفاكهة بكثرة"[4]، وأشار إلى اعتماد القدس على هذه المدينة إذ تستورد منها "جميع ما تحتاجه من طعام"[5]. وبعد أن تحدث بورشارد عن ثمار الأرض المقدسة ومزروعاتها، وقف على بعض الصناعات التي كانت تنتج منها، ففاكهة " الخوخ يتم تصنيعها وحفظها في عكا بطريقة فائقة وجيدة"، وتفاح آدم " يصنع منها المواطنون

---

[1] – المصدر نفسه، ص37–38 .

[2] – فورزبورغ، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ص98 .

[3] – بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص159 .

[4] – رحلة دانيال الراهب، ص109 .

[5] – المصدر نفسه، ص109 .

المخللات للأكل مع الدجاج، والسمك وأطعمة أخرى، وهي تجعل الطعام سائغاً جداً، أو ذا طعم لذيذ"[1]. وفصّل الرحالة في وصف صناعة السكر في الأرض المقدسة، فقصب السكر " ملئ بالمادة النّفاذة السائلة والرطبة جداً"، "ويتم تجميع القصب، ويُقطع طولياً، وكلّ قطعة بحجم نصف النخلة، وبعد ذلك يتمّ عصر القطع بالمعصرة، وينزل العصير في وعاء نحاسيّ مُعدّ لذلك، ثمّ يتمّ غلي العصير على النار حتى يصل إلى درجة التكاثف، ويُجمع في سلال مصنوعة من غضيات رفيعة، وبعد فترة يصبح السكر جافاً وقاسياً، وبهذه الطريقة يُصنع السكّر، وقبل أن يجفّ يتم ترشيح المادة السائلة منه التي تدعى عسل السكر"[2].

ورسموا صورة لبعض الأسواق التجارية الكبيرة التي كان يقيمها المسلمون في الأراضي المقدسة، ففي رحلة فيتلوس يقدّم الرحالة حديثاً مهماً " عن أحد الأسواق التجارية الموسمية المهمة الواقعة عند منطقة تلتقي فيها حدود مملكة بيت المقدس الصليبية مع أملاك المسلمين التابعة لأتابكية دمشق، ويبدو أنّ حركة ذلك السوق كانت على درجة كبيرة من النشاط والازدهار "[3]. ويتجلّى ذلك في قوله متحدثاً عن نهر دان " اليرموك "، وميدان: " ويتدفّق دان من مصدره تحت الأرض، ويبقى كذلك حتى يصل إلى ميدان، وهي ليست بعيدة عن تيما عاصمة السواد، وميدان سهل رائع وخصب، وفيه يظهر فرع دان فوق الأرض بوضوح، ولذلك سمّي بهذا الاسم ميدان، لأنّ دان يرتفع في وسط ميدان دعي السهل باسمه في لغة العرب، وفي اللغة اللاتينية عرف باسم السوق، والميدان تعني أيضاً مكان التسوّق، لأنّه في بداية فصل الصيف يحتشد جمع غفير هناك، ويقيمون في الخيام، وهم يحملون معهم أصناف الأشياء المختلفة من أجل بيعها، ويقيم هناك أعداد ضخمة من البارثيين[4]، والعرب من أجل رعي مواشيهم فضلاً عن حماية الناس"[5]. وهو السوق ذاته

---

[1] – بورشارد، وصف الأرض المقدسة، 169 .

[2] – المصدر نفسه، ص168 .

[3] – محمد عوض، الرحالة الأوروبيون، ص110، مقدمة الترجمة العربية للرحلة، ص135، حاشية 302 .

[4] – فيتلوس، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ص134، حاشية 300 .

[5] – المصدر نفسه، ص54 .

الذي وصفه ثيودوريش في رحلته إذ قال مضيفاً معلومات جديدة وشبيهة بما قدمه فيتلوس: فهناك "يجتمع حشد لا حصر لهم من الناس في هذا السهل كل سنة في بداية الصيف، جالبين معهم الأشياء للبيع، ومعهم عدد ضخم من البارثين parthians والعرب لحماية الناس وتجمعاتهم، الذين يبقون في تلك الأجزاء خلال الصيف"[1].

الحيوان:

تضمنت بعض الرحلات الأوروبية والروسية في العصور الوسطى حديثاً عن حيوانات الأرض المقدسة الأليفة منها والمفترسة، التي لم يعد لها وجود أو قلّ وجودها في تلك الأرض، فدانيال الراهب يبيّن أنّه في الخليل تكثر " قطعان الأغنام والحيوانات الأخرى التي تلد مرتين في السنة، وهناك أعداد كبيرة من النحل تقوم بصنع خلاياها في صخور تلك الجبال الجميلة "[2]. وتعيش في سدوم قرب البحر الميت " كثير من النمور، وحمر الوحش"[3]، " وتكثر الحيوانات البرية، مثل الدببة والنمور والأسود "[4] قرب نهر الأردن حيث استحمام السيد المسيح. وأشار في موضع آخر إلى كثرة الأسود التي تأتي " لهذه الأجزاء القريبة من نهر الأردنّ"[5]. وذكر بورشارد أنّ هناك في الأرض المقدسة " توجد بوفرة الخنازير البرية، وإناث الظبي، والأرانب البرية، والجمل، والسمّان التي من الرائع رؤيتها، وهناك العديد من الأسود، والدببة، وأنواع مختلفة من الحيوانات البرية...، وهناك أعداد غير محدودة من الجمال وحيدة السنام، والمُهُر، والجواميس"[6]. أمّا فيتلوس، فتحدث عن الحيوانات البحرية التي كانت تشتهر بها مياه قيسارية في تلك الحقبة الزمنية التي زار فيها المدينة، فذكر منها التماسيح، وأفاعي اليدروس الضخمة وغيرها، وأسهب في وصف هذه الحيوانات، كما يبدو من حديثه عن اليدروس " ويوجد نوع آخر من الأفاعي يُدعى يدروس ydrus ، وهو يودّ الإنسان أكثر من جميع المخلوقات، وهي تكره

---

[1] – ثيودوريش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ص135 .

[2] – رحلة دانيال الراهب، ص92.

[3] – المصدر نفسه، ص79.

[4] – المصدر نفسه، ص71.

[5] – المصدر نفسه، ص110–111.

[6] – بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص171.

التمساح بدرجة ليست أقل من كراهيته لها، ولذلك فكلاهما يبحث عن الآخر بطريقة تبادلية، ولكنّ اليدروس تصبح بدون شكل عندما تخفي نفسها بالوحل، وبهذا تصبح غير معروفة من قبل أعدائها، وتعرض نفسها أمام التمساح مارة من حوله مرّتين أو ثلاث مرّات، وبتجاهل تقوم بابتلاعه، وتأكل ضمن حدود السجن الذي أغلقته، وتقوم بفضّ الأحشاء، وتبعثر الكبد، وتقطع القلب إلى قطع، وتثقب الجوانب، وتخرج بعد أن تبتلع عدوّها"[1].

وقبل الختام لا بدّ من التنويه إلى أنّ هذه الصورة التي رسمها الرحالة الأوروبيون والروس للمسلمين في العصور الوسطى، لا تبتعد كثيراً عن الصورة التي رسمها رحالة أوروبيون محدثون مستشرقون، رأوا في سكان الشرق من المسلمين الهمجية، والعدوانية، والانحطاط، والبعد عن الأخلاق والحضارة، ولهذا استحقوا الغزو من جديد[2].

المصادر والمراجع

- أرنست باركر، الحروب الصليبية، نقله إلى العربية: السيد الباز العريني، ط2، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان.
- إدوارد سعيد، الاستشراق، نقله إلى العربية: كمال أبو ديب، ط4، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1995م.
- بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ترجمة وتعليق: سعيد عبد الله البيشاوي، مراجعة وتدقيق: مصطفى الحياري، ط1، دار الشروق، رام الله، فلسطين، عمان، الأردن، 1995م.
- تاريخ أكسفورد للحروب الصليبية، تحرير: جوناثان رايلي سميث، ترجمة زتقديم وتعليق: قاسم عبده قاسم، ط1، 1427هـ-2007م، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ويتضمن هذا الكتاب عددا من البحوث الت أفدت منها:

  * جوناثان رايلي سميث، حالة الصليبيين الذهنية تجاه الشرق.

  * سيمون لويد، الحركة الصليبية.

[1] – فيتلوس، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ص74 .

[2] – انظر تفصيل ذلك: إدوارد سعيد، الاستشراق، ص186 وما بعدها .

* ميخائيل روتليدج، الأغاني.

- ثيودوريش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ترجمة وتحقيق ودراسة: سعيد عبد الله البيشاوي، ورياض شاهين، ط1، دار الشروق، رام الله، فلسطين، 2003م.
- حسن عبد الوهاب حسين، مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، دار المعرفة الجامعية، 1999م.
- دانيال الراهب، رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الديار المقدسة، 1106–1107م، الترجمة عن الفرنسية: الكولونيل السير سي. دبليو ويلسون، نقلها إلى العربية: سعيد عبد الله البيشاوي، وداود إسماعيل أبو هدبة، تقديم: عفيف عبد الرحمن.
- سايلوف، رحلة الحاج سايلوف لبيت المقدس والأراضي المقدسة 1102–1103م، ترجمة: سعيد عبد الله البيشاوي، ط1، دار الشروق، رام الله، فلسطين، عمان، الأردن، 1997م.
- سهيل زكّار، الحروب الصليبية: الحملتان الأولى والثانية حسب روايات شهود عيان كُتبت أصلاً بالإغريقية والسريانية والعربية واللاتينية، ط1، دار حسان، دمشق، ويتضمّن الكتاب ترجمة للكتب الآتية:

  * آنا كومينا، الألكسياد.

  * تاريخ وليم الصوري.

  * مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة.

- عبد الجليل عبد المهدي، بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية،ط1، دار البشير، عمان.
- ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون الملطي، تاريخ مختصر الدول، وقف على تصحيحه وفهرسته: الأب أنطون صالحاني اليسوعي، دار الرائد اللبناني، لبنان، 1403هـ–1983م.
- فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس 1095–1127م، ترجمة: زياد العسلي، ط1، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1990م.
- فيتلوس، وصف الأرض المقدسة في فلسطين 1130م–525هـ، ترجمة وتعليق:

سعيد عبد الله البيشاوي،وفؤاد عبد الرحيم دويكات، ط1، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية، إربد، الأردن، 2008م.

- محمد الحافظ مصطفى النقر، كتابات بعض الرحالة الأوروبيين عن مملكة بيت المقدس الفرنجية 1099-1187م نشر في مجلة المنارة -جامعة آل البيت، المفرق، الأردن، المجلد الرابع، العدد الأول، 1419هـ-1999م ' ص193-228.

- محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية 1099-1187م، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1992م.

- محمد نور الدين أفاية، الغرب المتخيل في الفكر العربي الإسلامي الوسيط، المركز الثقافي العربي، د.ت.

- ميشيل بالار، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر، ترجمة: بشير السباعي، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2003م.

- الهمذاني، رشيد الدين فضل الله،جامع التواريخ، المجلد الثاني، نقله إلى العربية: محمد صادق نشأت، محمد موسى هنداوي، فؤاد عبد المعطي الصياد، راجعه وقدم له: يحيى الخشاب، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1960.

- يوحنا فورزبورغ، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ترجمة وتعليق: سعيد عبد الله البيشاوي، ط1، دار الشروق للنشر والتوزيع، رام الله، فلسطين، عمان، الأردن، 1997م.

- اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد بن قطب الدين البعلبكي الحنبلي، ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1380هـ-1960م.